السَّبيل إلى منهج الطائفة المنصورة

(١)

الواقع المؤلم

بين

المعالجة المرتجلة والتأصيل الصحيح

بقلم

عدنان بن محمد آل عرعور

مؤسسة قرطبة

طباعة. نشر. توزيع

ت : ٥٣٥٠٢٧

السبيل
إلى
منهج الطائفة المنصورة

(١)

الواقع المؤلم

بين

المعالجة المرتجلة والتأصيل الصحيح

بقلم

عدنان بن محمد آل عرعور

مؤسسة قرطبة

طباعة . نشر . توزيع

ت : ٥٢٥٠٢٧

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الثانية المزيدة والمنقحة

١٤١٦ هـ ١٩٩٥ م

مؤسسة منارة قرطبة

للجمع التصويري وتجهيزات الطباعة

٦٤ ش الخليفة ☆ مدينة الأندلس ☆ الهرم ☆ الجيزة ☆

ت ٥٣٥٠٢٧

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد للّه ربّ العالمين ، القائل :

﴿ **وأنَّ هذا صِراطي مُستَقيماً فاتَّبِعوهُ وَلا تَتَّبِعوا السُّبلَ فتفرَّقَ بكُم عَن سَبيلِهِ** ﴾ [الأنعام:١٥٣]

والصَّلاة والسَّلام على من خطَّ خطّاً بيده ، ثم قال :

« هذا سبيل اللّه مستقيماً » وخطَّ عن يمينه وشماله خطوطاً ، ثم قال : « هذه السبل ، ليس منها سبيل إلّا عليه شيطان يدعو إليه » ، ثم قرأ : ﴿ **وأنَّ هذا صِراطي مُستَقيماً فاتَّبِعوهُ وَلا تَتَّبِعوا السُّبلَ فتفرَّقَ بكُم عَن سَبيلِهِ** ﴾ (١)

أمَّا بعد :

فإنَّ معرفة السبيل القويم ، وسلوكه **بصدق** ، يعني بالضرورة : الفلاح في الدُّنيا ، والنجاة في الآخرة

وإنَّ معرفة السبيل المستقيم ، واتباعه **بإخلاص** ، يعني : القضاء على هذه الاختلافات التي نشبت في صلب هذه الأمَّة ، فأوهت قواها ، ومزَّقت

---

(١) أخرجه أحمد (١/٤٣٥) والنسائي في « السنن الكبرى » كما في « تحفة الأشراف » (٧/ ٢٥) وغيرهم ، والحديث حسن لذاته ، صحيح لغيره

أشلاءَها ، وفرَّقت صفوفها ، وجعلت أعداء اللَّه يلعبون بها ، ويدوسون كرامتها

وإنَّ معرفة السبيل الصحيح ، والسَّير فيه **بإيمان** ، يعني : **إنهاء هذه** التخبّطات التي يعيشها أصحاب المناهج المتناقضة ، والسبل المتفرقة

وإن توحيد هذه الأمة - الذي هو قوام أمرها والذي لن تفلح دونه - لن يتم على **رأي زيد** ، أو **فكر عمرو**

وإنَّما يتم توحيد هذه الأمة ، بمعرفة السبيل المعصوم : سبيل الكتاب والسنة على منهج سلف هذه الأمة ، وعندئذ ؛ أبشر بوحدة قوية ، ومسيرة موجهة ، وصحوة مباركة ، وثمرات يانعة

﴿ وَيَومئذٍ يفرحُ المؤمنون بنَصر الله ﴾ [الروم:٤-٥]

هذا ؛ وقد كنت من قبل قد أعددت كتيب « السبيل » ، ذكرت فيه بعض القضايا التي تخص المنهاج .. ثم لمّا أردت إعادة طباعته .. نظرت فيه ، فوجدت اسمه أكبر من حجمه ، وعنوانه أكبر من فحواه !

وكان الكتيب محاضرة كتبت من الذاكرة

ثم أعدت النظر فيه ، فرأَيت أَن يخرج الكتاب مجملاً مختصراً ، بكتاب مستقل باسم « معالم السبيل .. » ليكون أَصلاً ومنهجاً ، ثمَّ أَقوم بشرحه في أَجزاء متتالية .. مفصّلاً مجمله ، مبيِّناً أَدلّته ، باسم « السَّبيل .. » ليكون : مَعْلَماً ومناراً ، وهذا الجزء واحد منها

وقد وردت علينا ملاحظات حول الطبعة الأولى نظرت فيها بإنصاف ،

فما رأيت كبير فائدة إلّا في ثلاث منها :

الأولى : كثرة الأخطاء المطبعية التي أذهبت كثيراً من المعاني ، وهو حق وسبب ذلك .. غيابي أثناء طباعته ، وقد سقط منه كثير من السطور بل الصفحات

الثانية : تخطئتي في قولي : « محال على اللّه » ، وقد تأمّلت العبارة ، فرأيت تركها أفضل، لقوله ﷺ : « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك »[1]

الثالثة : عدم تخريج الأدلة تخريجاً حديثياً مفصلاً ، والجواب عن هذا : أنَّه ليس على كل مؤلِّف أن يتتبَّع النصوص ، وأن يستقرىء رواياتها، ويحققها تحقيقاً مفصلاً ، بل ما كان منها بحثاً حديثياً ، يخص التصحيح والتضعيف ، أو بحثاً يعتمد على روايات معينة ، فهذه هي التي تحقق تحقيقاً مفصَّلاً ، وهذا ما كان في كتابي « صلاة التسابيح » ، وكتابي «أحكام القنوت»[2].

وأما إذا كان البحث لا يعتمد على نص معيّن ، وإنما هو مفهوم من عموم الشريعة ، أو يعتمد على أحاديث في البخاري ومسلم ، أو على أحاديث لا نزاع في صحتها ، فيجوز للمؤلف أن يحتج بها ، ويعتمد على تصحيح الفحول من أمثال البخاري ومسلم والعسقلاني وشيخنا الألباني ؛ جزاهم اللّه عن الإسلام خير الجزاء

ويكفي المؤلفَ أن يشير إلى أقرب مصدر لها ، إذ لو كان ينبغي على كل مؤلف أن يحقق الأحاديث التي يذكرها ، ويتتبع طرقها ، لكان في ذلك من

---

(١) « الترمذي » (٦٦٨/٤) وغيره ، وصححه شيخنا في « صحيح الجامع » (٣٣٧٨)

(٢) وهما مطبوعان

العسر ما لا يخفى

حكم الاحتجاج بأَقوال من وقع عنده شيء من الخطأ أو الانحراف:

بقيت ثمة مسألةٌ ذكرها بعض الإخوان ، بعد كتابة ما تقدم ؛ وهي اعتراضهم على الاحتجاج بأقوال من وقع عنده تأويل لبعض صفات اللَّه عز وجل، أو أخطاء ، أَو بعض الانحراف ، ولهؤلاء الإخوان أقولُ :

أولاً : إنَّنا لا نحتج بأقوال هؤلاء ولا بغيرهم ، فالحجة في كتاب اللَّه وسنة رسوله ﷺ وإجماع الأمة ، وإنَّما نذكر أقوالهم استئناساً بها **وحجة على أتباعهم**

ثانياً : إذا كانوا لا يرون جواز هذا ، فعليهم أن لا ينتفعوا بعلم كثير من علماء الإسلام، ولا بتصحيح هؤلاء الأعلام لأحاديث النَّبي ﷺ ؛ كالحافظ العسقلاني والنووي والسيوطي وابن الجوزي والهيثمي ، وعليهم كذلك أن يقاطعوا كتبهم ؛ كَـ « فتح الباري » و « شرح مسلم » و « فيض القدير » و ...

وما كان جوابهم عن هذا ، فهو جوابنا عن ذاك ، واللَّه المستعان على العدل والإنصاف

ثالثاً : لو أنَّنا هجرنا كل عالم يخطىء ، وأعرضنا عن كل كتاب فيه دخن ، لكان على هذا العلم الموروث السلام ، قال ابن القيم عن الطائفة التي أنكرت التصوف وردته جملة وتفصيلاً : « حجبت عن محاسن هذه الطائفة ، ولطف نفوسهم ، وصدق معاملتهم ، فأهدروها لأجل هذه الشطحات وأنكروها غاية الإنكار وأساؤوا الظن بهم مطلقاً ، وهنا عدوان وإسراف ، فلو كان كل من

أخطأ أو غلط ترك جملة ، وأهدرت محاسنه ، لفسدت العلوم والصناعات ، والحكم وتعطلت معالمها »[1]

رابعاً : إنَّ الحقَّ يُقبل من أي مصدر كان ، ومهما كان قائله ، فقد قبل رسول اللَّه ﷺ ما جاء به الشيطان من الحق في قراءة آية الكرسي قبل النوم ، واستشهد رسول اللَّه ﷺ بقول الشاعر لَبيد يوم كان كافراً : ألا كلُ شيءٍ ما خلا اللَّه باطل ...

فإذا قبل الرسول ﷺ من شيطان ، واستشهد بقول كافر ... فما بالك بمسلم مخطىء أو لديه انحراف ؟! ...

خامساً : قد مضت سنة الأئمة الأعلام ، بالاستشهاد بأقوال بعض من وقع عندهم بعض البدع والانحراف ، فاستشهد شيخ الإسلام وتلامذته بأقوال للغزالي والجويني وابن حزم وغيرهم ... رحم الله الجميع

وأَعتقد أَنَّ في هذا لبلاغاً لمن أَراد الإِنصاف

ولذلك ؛ ذكرت نصوصاً كثيرة عن الداعية سيد قطب رحمه الله ، ليعلم محبوه وغيرهم ، ما كان عليه رحمه الله من منهجية حركية في آخر حياته ، إذ كان يؤكد على أن الإسلام لا يقوم إلا برّد الناس إلى مفهوم لا إله إلا الله الذي فقدوه ، وإصلاح هذه المجتمعات التي ابتعدت عن الله ، وذلك عن طريق الدعوة السِّلميّة الى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة ، وممارسة التربية العملية ، وكان في آخر حياته ، يرفض ويحذر من مغبة سلوك الطرق المحدثة في الوصول إلى الحكم ، كالمظاهرات والانقلابات ، والتفجيرات والحزبيات ، والمجالس النيابية ،

(١) مدارج السالكين ٣٩/٢

وغير ذلك مما أُحدث في هذا العصر

وكان ذلك بعد تجارب فاشلة ، ومعاناة مريرة ، عاشها هو والذين كانوا معه من قبل دفعته إلى مراجعة منهجه ، والوصول إلى هذه النتيجة

وإن استشهادنا بأقواله لايعني ، أنه كان خالياً من الأخطاء ، وإن مواقفه العظيمة لا تمنعنا من تصحيح تلك الأخطاء ، وتنبيه الناس إليها ، وإن وقوعه في تلك الأخطاء لا تبيح لنا التحامل عليه ، ورميه بما ليس فيه ، فضلا عن رد ما عنده من الصواب ، وانكار مواقفه في وجه الطاغوت ، كما أن تنبيهنا على تلك الأخطاء ، لا يعني الوقوف مع الطاغوت ، فإن ظفراً من أظفار سيد - رغم أخطائه - خير من طواغيت الأرض جميعاً رحمه الله رحمة واسعة ، وهدانا للرد بالحق والحكمة ، وقبول التخطئة والتصحيح ، والله أسأل أن لا يحملنا حبه على رد الحق الذي هو أحب إلينا من الرجال ، وأن يرزقنا الانصاف في القول والعمل.

وهذا الكتاب عبارة عن كلمات ومحاضرات ، ومقالات ومباحث من بعض كتبي ككتاب « قواعد معرفة الحق » وكتاب « المنهج » جمعت شتيتها ، وألفت بينها ، من غير خطّة مسبقة ، ولا ترتيب منضبط ، فحصل بذلك ، خلل واضطراب ، وتداخل وتكرار ... ولهذا أُقدِّم للإخوة الإعتذار

ولي على الإخوة القراء حقوقٌ :

الأول : أن ينظروا إليه بعين الإنصاف والعدل - كما كان سلفنا الصالح ينظرون - بعيداً عن معارضة الحق بالرجال ، التي هي صفة العاجز ، وسلاح الجاهل ، وهي صفة قد زجر عنها الإسلام

الثاني : تقديم النصيحة التي هي من صفات المخلص ، ومن حق المسلم على المسلم

الثالث : لا تحملنك كلمة أو فصل لم يعجبك على هجران ما في الكتاب من الحق

ولقد حاولت جاهداً ، أَن يُكتب بأسهل عبارة ، وأبسط أسلوب ، كي ينتفع به المسلمون كافّة على مختلف مستوياتهم

واعلم أن من سنن اللَّه في خلقه ، أن جعل للسالك على طريق الحق أعداءً يفترون عليه ، ويقذفونه بالتهم من مكان بعيد : ساحر ، كذَّاب ، كاهن ، عميل ...

أو يوردون عليه قرائن لا يقيم لها الحق وزناً ، ﴿ **وقالوا مالهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ... وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا** ﴾ [الفرقان : ٢٥]

وذلك صداً للناس عن دعوة الحق ، أو حسداً على ما آتى اللَّه عباده من فضله ﴿ **أم يحسدون الناس على ما آتهم الله من فضله** ﴾ [النساء - ٥٤]

فحذار أن ترد الأدلة بالتُّهم والقرائن ، فتشابه المشركين ، فتكون من الظالمين

ولقد أدبنا الإسلامُ بأدب الترفع عن كيد الكائدين ، والإعراض عن افتراء المفترين ، وأن نربأ بأنفسنا عن سِفْلَةِ الناس ، وأحداث الأسنان ، وأصحاب الأغراض ، وعلى المسلم المبتلى بمثل هؤلاء ، أن لا يضيع وقته في رد التهم ، وتفنيد الافتراء ، إلّا ما كان منه ضرورةً

﴿ فاصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلاً ﴾ [المزمل : ١٠].

وإن أمتنا الإسلامية لهي بأمس الحاجة - وبخاصة في هذه الآونة - إلى وقت الدعاة المخلصين ، ليُصرَف في سبيل دعوة الإسلام الخالدة ، وإحياء منهج السلف الصالح ، لا للقيل والقال ، والرّدود والتشفي

وسوف يخرج هذا « السبيل » على أجزاء متتابعة تعالج القضايا المنهجيّة ، وبخاصة المقصرة منها ، إن شاء الله تعالى

واعلم : أنه ليس المقصود من هذا الكتاب رجلاً معيّناً ، ولا جماعة مخصوصة ، بقدر ما هو تشخيص حقيقي لواقع مؤلم ، ومعالجة صحيحة لهذا الواقع فضلا عن أنه سعي صادق ، وخطوة منضبطة ، لتوجيه هذه الصحوة وتأصيلها ، وتوعية أفرادها وتثبيتهم على الحق ، والمنهج المثمر ...لاتربيتهم على العاطفة الجيّاشة ، والحماسة المؤقتة ، اللتين تزولان بصيحة ، وتنطفئان بنفخه ... وهذا الذي يُفرح أعداءهم ، ومنه يخترقونهم .. وبتأصيلهم وحسن تربيتهم ، يبقون ما بقي الحق ، ويصمدون كما صمد الأنبياء ، فينالون ما نالوا من التوفيق في الدنيا والفوز في الآخرة

﴿ بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق .. ﴾

واللَّهَ أسألُ أن يتقبل منَّا جميعاً ، وأَن يُعزَّ دينه ، ويؤيد المخلصين المتبعين ، ويرد كيد الكائدين ، وأن يدافع عن المظلومين ، وأن ينفع بهذا الكتاب ، وأن يدخره لي عنده ليوم الحساب ، إنَّه خير مسؤول وخير مُجيبٍ

وصلَّى اللَّه على نبيِّه محمد وعلى آله وصحبه وسلَّم

عدنان آل عرعور

مقدمة الطبعة الأولى[1]

الحمد للَّه ربّ العالمين ، والصلاة والسلام على سيِّد الأولين والآخرين محمد ، وعلى آله وصحبه أجمعين

أما بعد :

فقد طلب منِّي محبٌّ أن أكتب كتيباً مختصراً ، في منهاج الطائفة المنصورة ، وذلك بمناسبة عقد المؤتمر الثالث لجمعية القرآن والسنة بأمريكة (سنة - ١٤١١هـ) ؛ لكي يكون هذا الكتاب سبيل رشد ، ونبراس نور ، يضيء للمسلم طريق الهدى ، ويبين له طريق الخلاص ، في خضم هذه الخلافات الهائجة ، والجماعات المختلفة ، وفي زمن فشا فيه الجهل ، وقلَّ فيه العلم ، وكثر القيل والقال ، وصدق فينا قول المصطفى ﷺ : « إنَّ اللَّه تعالى لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد ، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء ، حتى إذا لم يُبق عالماً اتخذ الناس رؤوساً جهالاً ، فسئلوا ، فأفتوا بغير علم ، فضلُّوا وأضَلُّوا »[2]

وإن مما تجدر الإشارة إليه ؛ أنَّ المسلمين قد فقدوا الشيء الكثير من معالم دينهم ، وسبيل نجاتهم ، وإن من أهم ما فقدوه - إلّا من رحم اللَّه - قواعد معرفة الحق

---

(١) قد جرى بعض التعديلات فيها

(٢) البخاري (رقم ١ و ٧٣٠٧) ، ومسلم (٤/٢٠٥٨) ، وغيرهما

فقد أحلوا مكان البيِّنة التزيين ، وقدموا الرجال على الدليل ، واتبعوا الهوى بدلاً من الهدى ، واستبدلوا العاطفة بالبصيرة ، وأحلُّوا الفكر محل الاتباع ، واشتروا بكتاب اللَّه عزَّ وجلَ وسنَّة رسوله ﷺ فكر زيد ، وتجديد عمرو ، ﴿ واتَّبَعُوا أهواءَهُم ﴾ [محمد:١٤] ... حتى صار العالم عند كثير منهم ، من ابتدع وفكر ، وعن سنة رسول اللَّه ﷺ أعرض وأدبر ، وبالمشركين اقتَدى وتمسك ! ﴿ **أَفَمَن كانَ على بيِّنة مِن ربِّه كَمَن زُيِّنَ لهُ سوءُ عملِه** ﴾ [محمد:١٤]

فالمجتهد عندهم من خالف النصوص ، وأحدث في دين اللَّه من البدع الفكرية ما لم ينزل به اللَّه سلطاناً ، بدعوى التجديد والفكر

والمتبع - عندهم - لسنة رسول اللَّه ﷺ وصحابته الكرام ، جامد العقل ، بدويُّ الفقه ، سطحي التفكير

وإذا كان علامة أهل البدع في عهد سلفنا قولهم عن أهل السنة والجماعة : « المجسِّمة » و « الحشويَّة » ، فإنَّ من علامة أهل الزيغ في زماننا ، قولهم عن أهل الحق : « أصحاب الفقه البدوي ... » ! **فإلى اللَّه المشتكى من غربة هذا الزمان**

ورغم قناعتي بعدم الكتابة في هذا الموضوع الهام ، وذلك لضيق الوقت ، ولأن مثل هذا الموضوع يحتاج إلى تأصيل وتقعيد ، الأمر الذي يلزمه مطالعات جمَّة ، وأوقات مديدة .. رغم هذا كله ؛ أُراني أكتب على هذه العجالة ، كلمات مختصرات حاولت فيها الإجابة عن أسئلة واقعية مهمَّة :

ما هو السبيل ؟

كيف النجاة ؟

ما هو الضمان ؟

وأدعو اللَّه تعالى ، أن يبارك لي في وقتي ، كي أعطي هذا الموضوع حقَّه ، لما له من أهمية بالغة ، في بيان الحق ، وإيضاح سبيل الخلاص

ونظراً لضيق الوقت ، فقد كتب معظمه من الذاكرة ، فمن رأى فيه شيئاً فليسارع إلى النصح ، وليسبق إلى الخير ، فما تمَّ كتابٌ بعد كتاب اللَّه عزَّ وجلَّ.

فعسى اللَّه تعالى أن يهدي به أناساً ، ويكتب لآخرين الأجر والمثوبة ، إنَّه رحيم كريم

وصلَّى اللَّه على نبيِّنا محمد وعلى آله وصحبه وسلَّم

الرياض / غرة ربيع الثاني ١٤١٠هـ

عدنان محمد آل عرعور

فصول الكتاب ومباحثه

وقد تضمن هذا الجزء من « السبيل » الفصول والمباحث التالية :

الفصل الأول :

الواقع المؤلم ، والمعالجة المرتجلة :

- من أين وإلى أين
- التشخيص الخاطىء والمعالجة المرتجلة
- أين نبدأ

الفصل الثاني :

لوازم التشخيص :

- الطبيب هو الله تعالى
- وجوب الالتزام بتشخيص الطبيب
- وجوب تناول الدواء الموصوف
- لا مرض جديد في الأمّة
- صفات المتصدي للمعالجة

الفصل الثالث :

العقبات :

- الجهل - التفرق - سوء الخلق - ضعف الإخلاص - القول بلا

عمل - العمل بلا علم - ضعف الإخلاص أو فقدانه - فقدان المناعة - ضد الأهواء - سوء تربية معظم الجماعات الإسلامية

الفصل الرابع :

الأمل والطريق

- هل من أمل في الشفاء
- سر الانحراف وسبب الاضطراب
- الطريق وحال المعرضين

الفصل الخامس :

العواصـــــم :

- التفكير بالنجاه قبل كل شيء
- حسن النية لا يغني عن الاتباع
- التفريق بين البيّنة والتزيين

(٢)

من أين ... وإلى أين .. ؟

لا يخفى على العاقل ما يعانيه عالمنا الإسلامي ، من فوضى فكرية ، واضطراب منهجي ، وتخلُّف في كافة مجالات الحياة ، فضلا عن كيد أعداء الله ، وتربصهم بالمؤمنين ، ونصب الأفخاخ لهم ، حتى غدا بمن يمثله مهزلة على رؤوس الأشهاد ، ودمية يحركها الأوغاد ، وكرة يتقاذفها المتلاعبون كيف شاؤوا وأين شاؤوا ، كل ذلك على حينِ غفلةٍ من الصالحين ، وعجزٍ من المصلحين

وصدق فينا تشبيه المصطفى ﷺ : « توشك أن تداعى عليكم الأمم من كل أفق كما تداعى الأكلة إلى قصعتها ، قيل : يا رسول اللَّه ، فمن قلة نحن يومئذ ؟ قال : لا ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، يجعل الوهن في قلوبكم ، وينزع الرعب من قلوب عدوكم ، لحبكم الدنيا ، وكراهيتكم الموت »[1]

ومما زاد الطِّينَة بِلَّةً ، والأمر تعقيداً ، ما يعانيه المسلمون المتمسكون أنفسهم من تفرقٍ بين جماعتهم ، واضطرابٍ في مناهجهم ، بل وتمزُّقٍ في صفوفهم وتناحر بينهم ، حتى غدوا يتقاذفون التُّهم ، ويتبادلون التضليل ، الأمر الذي أشغلهم عن تربية أَجيالهم ، وإعداد أَنفسهم ، ورد كيد أعدائهم ، والتنبه لما يحاك لهذه الأمة من مكر وخديعة ، كيما تكون أضعف الأمم في الدنيا وأذلها

(١) حديث صحيح ، أخرجه أبو داود (رقم ٤٢٩٧) ، وأحمد (٥/٢٧٨) ، وغيرهما

أقول : لم يعد هذا خافياً على أحد استقر في رأسه عقل يفكر ، أو سكن في صدره قلب يبصر ، أو بقي في نفسه ضمير يحس .

ولكن الذي ما زال خافياً هو : **سبيل الخلاص** ، وطريق النجاة .. فهؤلاء الشيوعيون والاشتراكيون وما شابههم ، بدأوا يُنكّسون رؤوسهم خزياً مما فعلوه بشعوبهم ، من ذل مهين ، وفقر مدقع ، بما أحدثوه من أفكار خبيثة ، ومبادىء هدّامة ، جرَّت الويل على مجتمعاتهم ، والدمار على شعوبهم ، فالشجاع منهم من أعلن فشله على الملأ ، والخبيث من غطى وجهه من الذل مما أصابهم ، كالنعامة تغطي وجهها ، تظن إن لم تر أحداً ، فإن أحداً لن يراها !

انتظروا إنَّا معكم منتظرون :

لا أعتقد أن مراقباً للأحداث العالمية ، يعتقد أن يمر عقدٌ إلّا والشيوعية وأترابها قد فرُّوا من الواقع ، ولم يَعُد لهم وجودٌ يُذْكَر بإذن اللّه تعالى[1] .

وأما المجتمعات الغربية ، فليس لديها مبدأ يناقش ، اللهم إلّا الدرهم

---

(١) كان هذا قد كُتب قبل بدء انهيار الشيوعية ، ولم يمض على كتابته سوى شهور ، وإذا بعروش الشيوعية تتهاوى ، واحداً تلو الآخر ، ولم يمض سوى سنتين ، وإذا بما يسمى بـ « الاتحاد السوفياتي » أكبر معقل لهم يهوي ليصبح رمزاً للظلم ، والكذب ، والافتراء على الشعوب ... فهل من معتبر ؟!

وكثيرٌ من الكُتّاب المسلمين - وللأسف - كانوا يُحذّرون من الاتحاد السوفياتي وأنَّ الشيوعية قادمة لا محالة ، وأنَّ ... وأنَّ ... حتى أُلقيت عن ذلك المحاضرات ، وأُلفت بذلك الكتب **أما أتباعُ الكتاب والسنة ... فإنَّهم كانوا يرون المشكلة في ضعف المسلمين لا في قوة أعدائهم ، ثم ظهر الصواب ، ومع ذلك ما يزالون يتهمون دعاة منهج السلف بعدم معرفة فقه الواقع ، فمن هو أولى بذلك ؟!! فتدبر .**

والفَرج ، وحسبك بهذين المبدأيس ديناً لهم ، وأساساً لمجتمعهم ، وسيأتيهم ما أتى إخوانهم من الشيوعيين من قبلهم ، ذاقوا وبال أمرهم ، وكان عاقبتهم خسراناً وذلاً ، وفشلاً واندحاراً .

حقيقة أَمرهم :

ونحن إذ نقول هذا ؛ لا ننكر أنَّ هؤلاء الغربيِّين قد حقَّقوا تقدماً علمياً ملموساً ، ونالوا قسطاً من الرفاهية المادية لا يُنكَر ، وتخلقوا ببعض أخلاق المسلمين التي فقدها أهلها ، وكانوا أحق بها

ولكنهم في الوقت نفسه ، فقدوا الكثير الكثير من مُتع الحياة الحقيقية ، فقد فقدوا المتعة الروحية ، والسعادة الأُسرية ، وانعدم التراحم بينهم ، وانتشرت الجريمة في صفوفهم ، حتى أصبحت بلادُهم غاباتٍ لوحوش كاسرة ، القوي فيها هو صاحب الحق ، والضعيف عندهم هو الظالم !

يقصفون مدناً كاملة بأهلها ، ويمدون دولاً ظالمة لتعتدي على دول مستضعفة مظلومة ، باسم العدل ، ومجلس الظلم (الأمن)[1]

ثم إذا ما أُصيب أحد أفراد شعوبهم بمكروه ، أقاموا الدنيا وأقعدوها ، باسم الإنسانية ، وبدعوى حقوق الإنسان ، وحقيقة ذلك كسب أصوات المنتخبين

قَتلُ امرىء في غابة جريمةٌ لا تغتفر
وقتـــلُ شعبٍ آمِنٍ قضيَّةٌ فيها نظر

وغدت مجتمعاتُهم بُؤَراً للفساد ، ومرتعاً لانتشار الأمراض الوبائية الفتاكة ، وملعباً للعصابات المنظمة ، يخطفون الأطفال الأبرياء ، فيفعلون بهم

---

(١) كُتب هذا الكلام قبل أحداث « البوسنة والهرسك » !

الفاحشة ثم يقتلونهم ، أو يبيعونهم ، حتى أمست تجارة الأطفال من أربح التجارات بعد تجارة المخدرات .

وأصبح الرجل يجامع أخته ، والأب يزني بابنته ، بل والولد يضاجع أمه ، والذكر يتزوج بالذكر ، فأي فساد بعد هذا !؟ وأي حضيض بعد هذا ؟!

لقد ظنوا - أول أمرهم - أن المتعة الحقيقية ، في الدرهم والخمور ، والطعام والفروج .

﴿ والَّذينَ كَفروا يَتمتَّعونَ ويأكلونَ كما تأكلُ الأنعام والنَّار مثوىً لهُم ﴾ [محمد:١٢]

وعَضَّتهُم أمراض الزنى واللواط ، حتى لا يكاد ينجو منها أحد ، وتفشت فيهم الأمراض النفسية ، وحل بهم القلق ، فتوغل في أعماق نفوسهم ، فلجأوا إلى الكهان ، يستمدون منهم العون ، ويطلبون منهم النجاة ، فشاع فيهم الانتحار ، وقتل الذرية والزوجات ، وما تُخفي لهم الأيام أدهى وأنكى

وصدق فيهم قولُ اللَّه تعالى :

﴿ ومَن أعرضَ عن ذكري فإنَّ له معيشةً ضَنكاً ﴾ [طه:١٢٤]

وما نراه فيهم من كثرة الأموال ، وصحة الأبدان ، إنما هو استدراج من الله ومكر بهم .

قال سبحانه : **﴿ فَلمَّا نَسُوا ما ذُكِّروا بهِ فَتَحنا عليهم أبواب كل شيءٍ حتَّى إذا فَرِحوا بما أُوتوا أخَذناهُم بَغتةً فإذا هم مُبلِسون ﴾** [الأنعام:٤٤]

وقال سبحانه - منبهاً عباده الصالحين أن لا يغتروا بما عندهم - : **﴿ فلا**

تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون ﴾ [التوبة - ٥٥]

سؤال محرج :

ولم أنس ذلك السؤال من فتاة أمريكية - عقب محاضرة لي عن الإسلام في إحدى الجامعات الأمريكية - حيث قالت :

إذا كان هذا هو الإسلام كما تقول ، فلماذا لم تبلغوه لنا ؟!

هكذا سَأَلَت ... وبهذا أحرجت .

وأيم اللَّه ؛ ما أُحرجتُ في حياتي بسؤال مثل هذا !

وإنَّه - واللَّه - لسؤال محرج لكل مسلم ، مهما كان وحيثما كان ، وإنَّها الأمانة التي ناءت عن حملها السماوات ، وأعرضت عن قبولها الأرض والجبال ، ﴿ وحَمَلَها الإنسان إنَّه كان ظَلوماً جَهولاً ﴾ [الأحزاب:٧٢] .

ظلوماً في أدائها ، جهولاً بالخير الذي فيها

قصَّر في تبليغها ، فظلم نفسه وغيره ، وجهل فيها ، فخالف أحكامها ، ولم يخضع لسنتها

وكان الجواب وقتئذ : نبلغكم الإسلام حين يصبح المسلمون مسلمين حقاً !!

أَسئلة واقعيَّة :

والأسئلة التي تطرح نفسها الآن ، وتُلِحُّ على إيجاد أجوبة عملية وواقعية :

متى يصبح المسلمون مسلمين حقاً ؟
بل ، كيف يصبح المسلمون مسلمين حقاً ؟

متى يدرك المسلمون إسلامهم ؟ ويعملون به ؛ بخاصة بعدما تزلزلت عروش الشيوعيين ، والاشتراكيين وأمثالهم ، وأعلنوا هم أنفسهم على الملأ إخفاقهم .

ومتى يصبح المسلمون صادقين مع دينهم ؟
وبخاصة بعدما أعلن العالم الغربي إفلاسه في مجال الأخلاق ، والروح
وباختصار :

أين المسلمون ..... ؟

صحيحٌ إنَّه لا يوجد سوى الإسلام لإنقاذ البشرية من حمأتها ، وإنقاذ النَّاس من غيهم ، **ولكن :**

أين المسلمون .... ؟

إنَّ لسان حال تلك المجتمعات ؛ بل لسان مقالهم يقول :
إنَّنا نرى إسلاماً ... ولا نرى مسلمين ...
ونرى مبادىء ... ولا نرى عاملين ...

وإذ نعتقد أنَّ الإسلام هو الطريق الوحيد للخلاص والنجاة ، فليس لأنَّه يؤمِّن لنا العيش الرغيد ، والحياة المطمئنة الهانئة فحسب .. لا ؛ بل لأنَّه دين ربّ العالمين ؛ أمر به عباده ، ودعا إليه خَلْقَهُ ، فلا بديل عن الإيمان به ، ولا مفرّ من التمسك بأحكامه

﴿ قُل أَفَغَير الله تأمُرونِّي أعبدُ أيُّها الجاهلون ﴾ [الزمر:٦٤]

﴿ إنَّ الدِّينَ عندَ اللهِ الإسلامَ ﴾ [آل عمران:١٩]

﴿ ومَن يَبتَغِ غَيرَ الإسلامِ ديناً فَلَن يُقبلَ منهُ وهو في الآخرَةِ مِن الخاسِرين ﴾ [آل عمران:٨٥]

فلا خيارَ لنا في غيره ، مهما ظَننّا أننا نفلح بغيره ، ولا خيار لنا في أحكامه ، مهما ظَننْا أنَّ في غيره رُشداً ومصلحة .

﴿ وما كان لمؤمنٍ ولا مُؤمنةٍ إذا قضى الله ورسوله أمراً أنْ يكونَ لهم الخيرة من أمرهم ﴾ [الأحزاب:٣٦]

التشخيص الخاطىء ، والمعالجة المرتجلة

كنا نسمع من بعض الدعاة : أنَّ الاتحاد السوفياتي فعل ودبَّر .. وأنَّ أرباب الشيوعية كادوا ومكروا .. وأنَّ الاتحاد السوفياتي يملك من الإمكانات المادية كذا ، ومن القوة العسكرية كذا ،

وراحوا يُعدّدون على المنابر طائراته ، ويحصون في الدروس صواريخه ، ويذكرون قنابله الذريّة ، وقوّتها التدميرية ، وأنها تقتل في لحظة واحدة مئات الألوف من البشر ، وتدمر مئات الأميال المربعة من الأرض !

وعلى من يلقون هذه الأخبار ؟

على عوام النَّاس وجهّالهم ، وضعيفي التوكل وفسّاقهم ، وعلى من لا يجدون لقمة العيش ، أو المتخمين من جشع الدنيا .. على الذين لا يعرفون ولاءً ، ولا يعقلون براءً

ولمّا لم يكن عند المسلمين من الحصانة الإيمانية ، ولا المناعة التوكُّلية ما يَقِيهم من شر هذه الأخبار ، أُلقي الرعب في قلوبهم ، وقُذف الوهن في نفوسهم ودب اليأس في باطنهم ، ولسان حالهم يقول : متى نكون مثل هؤلاء في القوة ؟! ومن يحمينا من هؤلاء..؟ **وأمريكا ليست معنا ؟!**

فزادوهم وهناً على وهن ، وضعفاً على ضعف

فمن المثبطون إذن ؟

ومن الذي يقع في فخ الأعداء من حيث لا يشعر ؟

وكانوا إذا قال لهم ناصحٌ : إنَّ هذا الأسلوب له مفاسده التربوية الخطيرة ، فضلاً عن مخالفته لهدي النَّبي ﷺ في تربيته ومنهجه ! نظروا نظرة ريبة وشك !!

وإذا قيل لهم : إنَّ القضية ليست قضية الاتحاد السوفياتي وقوَّته ، وإنَّما هي ضعف المسلمين ، وإعراضهم عن دينهم وأن لو كان المسلمون أهلاً للنصر ، لدمَّر اللَّه الاتحاد السوفياتي في الليل قبل النهار ، وفي النهار قبل الليل ، قالوا - وهم يتفيهقون - : أنتم مثبِّطون !!!

ثم لما استنهضوا المسلمين ، لم ينهضوا ! ولما استنفروهم ، لم ينفروا ! فعاقبهم اللَّه بمخالفتهم هدي النَّبي ﷺ ، وباستهزائهم بأصحاب المنهج القويم ، وافترائهم عليهم .

وكانوا يُوحون للناس بأساليبهم هذه : أنَّ أعداء الإسلام هم العقبة الكأداء في طريق الإسلام والمسلمين ، حتى ظننَّا أنَّ المسلمين قد أدّوا ما عليهم من واجبات ، واستكملوا ما عليهم من حقوق ، ووصلوا درجة استحقاق النصر ، ومنزلة التمكين ، لولا أعداء المسلمين ؛ المتربصون بهم ، والمعترضون طريقهم

وها هي - معشر العقلاء - عقبتكم قد أُزيلت ، ودولتهم قد سقطت ، ومبادئهم قد أخفقت

فأين المسلمون ، ليحلُّوا محلَّهم ؟!

هذا هو السؤال الذي يفرض نفسه على العقلاء ، وعلى العقلاء فحسب

« أين المسلمون » ؟!

وماذا فعل المسلمون بعد سقوط الاتحاد السوفياتي وما عساهم أن يفعلوا ؟ غير الخطب النارية ، والمقالات الارتجالية !

أين الخطط المرسومة ؟ وأين التصورات المتوقعة ؟

إنَّنا إنْ لم نستفد من هذه الواقعة إلّا عبرة واحدة ؛ لكان في ذلك خير عظيم

ألا وهي :

أنَّ المسلمين أنفسَهم يفقدون الإعداد ؛ بل ويفقدون البناء

« إنَّهم يريدون أن يكوِّنوا قبل أن يُكوَّنوا »

وبعبارة أخرى أصرح وأوضح :

إنَّ المسلمين يفقدون أنفسهم !! ... وإلّا فأين هم الآن .. ؟؟

إنهم أشتاتٌ، قد نخرهم ضعف الإيمان ، وأذلهم حب الدنيا ، وأضعفهم التنازع

ولو أنَّ الغرب سقط الآن - وهو ساقطٌ لا محالة - لَمَا وجد المسلمون أنفسَهم ، وليس سقوط الدول الغربية جميعاً بأبعد من سقوط الاتحاد السوفياتي ، فإنَّه يكفي لسقوطهم إفلاس ثلاث شركات كبرى ، وثلاثة مصارف (بنوك) ، لتحلَّ بديارهم الكارثة ، وليأكل بعضهم بعضاً جهاراً نهاراً [1]

(١) بعد كتابة هذا بأيام ، وقعت أحداث « لوس أنجلس » وهي مدينة أمريكية كبيرة =

ولعلَّ سرَّ تأخر سقوطهم ، هو **عدم أهلية المسلمين للقيام بأعباء التمكين** ، وانتظار لهم ، ليصحوا من غفوتهم ، ويستيقظوا من سباتهم .. وهذا من فضل اللَّه على النَّاس ، ولكن أكثر النَّاس يستعجلون ، ولا يفقهون .

وإن هذا الواقع المؤلم الذي تعيشه أمتنا ، من كيد ماكر ، وفقدان للذات ، وضعف في كل شيء ، إنما هو بما أُصيب به المسلمون من أمراض ، هي أشدُّ فتكاً من أمراض عدوِّهم وأخطر

أتت عليهم ، فجعلتهم هواء .. ثم ألقت بهم في حمأة الذل ، ومِرْجَل الهوان

دبَّ فيها الفوضى والنهب والسلب والحرق والقتل ، بهمجية لا مثيل لها ، وبوحشية لا هوادة فيها ، فسلب بعضهم بعضا ، وقتلوا أنفسهم ، وأحرقوا أموالهم وديارهم بأيديهم ...
هذا ما فعلوه بأنفسهم ، فكيف لو تمكنوا من المسلمين الذين يَعُدُّونهم أعداءهم ؟
... فاعتبروا يا أُولي الأبصار
وإن تعجب من هذا ، فأعجبُ منه أولئك الذين لا يزالون يدْعون لبناء المجتمعات على تلك الطريقة : طريقة الدرهم بلا ضمير ، والإباحية بلا دين ، والفوضى بلا خلق !
ولقد ثبت بهذه الأحداث وبغيرها من الأحداث ، كأحداث « البوسنة والهرسك » ، ومما هو مشهور معروف ، أنَّهم يُخفون وراء ابتسامتهم الصفراء لؤماً ناقعاً ، وضغينة مزعفة ، ويكتمون في نفوسهم حقداً أسوداً وكيداً خبيثاً على أنفسهم ، وعلى غيرهم من المؤمنين
ولو أنَّنا تفقهنا بالكتاب والسنة ، وأشربت بهما قلوبنا ... لما احتجنا إلى الاحتجاج بالأحداث ، ولا إلى تحليلها ، وحسبنا موعظة ربنا :
﴿ تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتَّى ﴾ [الحشر:١٤]
﴿ لا يَرْقُبون في مؤمنٍ إلّا ولا ذمَّة ﴾[التوبة:١٠]
﴿ وما تُخفي صُدورهم أكبر ﴾[آل عمران:١١٨]

لقد أُصيب المسلمون **بوباء التفرق والتمزق** ، الذي هو أخطر من ألف مرض من مثل مرض فقدان المناعة (الإيدز) الذي انتشر بين الكافرين !

وأُصيب المسلمون **بمرض كثرة القول ، وقلة العمل** ، الذي سبب مقت الله الذي هو أخطر من مرض الزُّهَري والسيلان ، اللذين انتشرا في صفوف أعداء اللَّه

﴿ يا أيّها الذينَ آمَنوا لِمَ تَقولونَ ما لا تَفعَلون . كَبُر مقتاً عندَ اللهِ أن تَقولوا ما لا تفعلَون ﴾ [الصف:٢-٣] .

وأصيب المسلمون **بداء التَّحاقد والتَّحاسد والتَّباغض** ، حتى غدت هذه الأمراض أمراً متعارفاً عليه بينهم ، مألوفاً لهم .

وأما الجفاء وسوء الخُلُق ، والغيبة والنميمة ، وعدم التثبت ، فحدِّث عنه ولا حرج، فإن شئتَ أَنْ تغرف من بحر فاغرف، أو شئت أن تجمع من رمل فاجمع !

يخطط المسلمون في الليل ، لينسوا ذلك في النَّهار

يخطبون عن الخَلْق الحسن ، وهم عنه بعيدون

يُحرِّض أحدُهم على الجهاد ، في الوقت الذي يجلس هو تحت المكيفات وأبناؤه يدرسون في بلاد الكفار ، ويعدّه أصحابه من أوائل المجاهدين ويدافعون عنه ...

... إلّا مَن رَحِمَ اللَّهُ ... !

▫ صور أخرى من واقعنا المؤلم :

ولم تك الجماعات المسلمة أحسن حالاً بكثير من واقع الأمة اللهم إلا فيما يحمله المخلصون منهم س همّ وحسرة على هذا الواقع المفجع ، بل ربما زادت بعض الجماعات أمراضاً فوق أمراض الأمّة ، فترى بعض الناس في جماعة حزبية ما ، وهو لا يحسن صلاة ولا يقوم بكثير س الواجبات ، بل ويميّعُ كثيراً س قضايا العقيدة ، ويستهزئ بالسنن ، ومع ذلك ؛ فهو مرموق المكانة ، معزز الجانب ، لأنه عضو في تيك الجماعة !!

وكم من عالم عامل ، تقي ورع ، داعية مصلح ، يُنظر إليه من قبل تلك الجماعة نظر ازدراء واستكبار.. بل ومعاداة !

بل ربما تتعاون تلك الجماعة مع الشيطان والطاغوت لأذيّة مسلم والتشهير به ، وليس له ذنبٌ إلاَّ أنه لم ينضم الى حزبهم .. فهم يرفعون شأن من كان في حزبهم - ولو كان من الفاسقين - ويعادون من كان من غيرهم - ولو كان من الصالحين -

وترى آخرين ، قد اهتموا بجزئيات من الدين ، وأهملوا الأصول والقواعد، وربما اختلفوا على سنة ، وتشاققوا في مندوب ، ينزغ الشيطان بينهم ، ليفرّقَ شملهم ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً .

وقد تجد أناساً قد أحبوا رمزاً معيناً ، أو انتسبوا إلى حزب معين حتى لا يروا قولاً غير قوله ، ولا منهجاً غير منهجه ، أعمى الولاء قلوبهم ، وأصم الانتماء آذانهم عن الحق الذي عند غيره .. الطاعن فيه عندهم أعظم من الطاعن في أبي بكر وعمر ، ولذلك تجدهم يمتدحون شاتمي ابي بكر وعمر ، ويعادون من خطَّأ

عالمهم أو كبيرهم !

وعلى العكس من هذا ، تجد قوماً إذا كرهوا مسلماً لا يرون فيه حسنة ، ولا يُبصِرون له فضيلة .

وربما ترى ظاهر قومٍ قد بذلوا أنفسهم للإسلام ، وقدَّموا الغالي والثمين ، وجاهدوا وقاتَلوا ، ثم بين عشيَّةٍ وضُحاها تفرقوا واختلفوا ، وصار ما بينهم أشدّ مما كان بينهم وبين عدُوِّهِم ، وسبَبُ ذلك ؛ خروجٌ عن منهاج النبوَّةِ ، أو إيثارٌ للنفسِ على مصلحة الجماعة ، أو إتِّباعُ الهوى ، أو سوءٌ في الخُلُقِ والتربية ، أو .. أو .. ولربما تجدها مجتمعة عندهم وهم لا يشعرون ، والعِياذُ بالله .

ومع هذا كله ، ما يزال إخواننا - هداهم اللَّه - يُصرّون على غضِّ بصرهم عن الأسباب الحقيقيّة الكامنة وراء هذا الضعف من الأمراض الفتَّاكة ، ومن الإهمال التربوي ، والتقصير الدعوي ، ويعرضون عن الطرق **الشرعيّة** في مداواتها

ولهذا اندفع كثير من المسلمين العاطفيين - وكثير منهم مخلصون - إلى تغيير هذا الواقع المؤلم عن طريق المواجهة المرتجلة بأنواعها ، من غير ضوابط شرعية ، ولا حكمٍ بالغة ، واستغل هذا أصحاب النيّات الفاسدة ، والأغراض الدنيئة من الصفّين ، فأسعروا نيران الفتنة ، الأمر الذي انعكس على الأمة بالمصائب والرزايا ، مما زاد الأمّة مصيبة فوق مصائبها

وكانوا إذا جاءهم من يقول : داووا المريض قبل التكليف ، وعلِّموا العابر السباحة قبل المخاضة ، وأعدُّوا المقاتل قبل المبارزة ، قالوا : أنت مثبِّط ... !!

وإذا جاءَهم ناصح - وهو مجاهدُ - فقال : إنَّ للجهاد شروطاً وأحكاماً ، وقواعد وآداباً ، لا بدَّ من تحقيقها ، قالوا : **أنت مشبوهٌ .. !!**

إنَّ مثل الذين يدفعون هذه الشعوب للصِّدام والمواجهة .. كمثل الذين يدفعون قوماً لعبور يمّ ، وهم لا يُحسنون السباحة ، فأغرقوهم ، وزادوهم بلاءً على بلائهم !! فاللهم هداك

أو كمثل من يدفع قوماً للمبارزة ، وهم لا يحسنونها ؛ فقتلوهم ! ثمَّ راحوا يلقون باللائمة على غيرهم

لقد آن الأوان للعقلاء أنْ يدركوا : أن هذه الأمراض التي حلّت بالمسلمين ، هي سبب ضعفهم ، وهي أعظم خطراً من الأمراض التي دبت في صفوف أعدائهم

إن أمراض المسلمين قد نخرت عظامهم ، وأوهت قواهم ، وجعلتهم لا يلوون على شيء إلّا بحبل من اللَّه ، وبقية توحيد في صدورهم ، ودعاء المصطفى ﷺ أن لا يُهلكهم اللَّه بِسَنَةٍ عامّة ، وأن لا تُستباح بيضتهم

ففي الحديث : « سألت ربِّي ثلاثاً ؛ فأعطاني اثنتين ، ومنعني واحدة : سألت ربِّي أن لا يهلك أمتي بالسَّنَة ، فأعطانيها ، وسألته أن لا يهلك أمتي بالغرق فأعطانيها ، **وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها** » [1]

لذلك حُقَّ لنا ؛ بل وجب على المسلمين أن يشخصوا أمراضهم ، ، ثم يتعاوَنوا على علاجها

---

(١) مسلم (٤/٢٢١٦) ، والسَّنَة : الجدب والقحط

ومعنى الحديث : أن لا يهلكهم ويستأصل شأفتهم ، فلا يبقى منهم أحد

حقيقة المشكلة :

إنَّ حقيقة المشكلة التي غفل عنها إخواننا من أصحاب المناهج الخاطئة ، والأفكار المنحرفة تكمن في :

- ✓ **أنَّنا نتحدث عن أعداء الإسلام أكثر من تَحَدُّثِنا عن أنفسنا**
- ✓ **وأنَّنا نسعى لمداواة الكفَّار قبل مداواة أَنفسنا**
- ✓ **وأننا نضع حلولاً لهذَ الأمة من بنات أفكارنا ومن ردود فعل عواطفنا ، بل ربما من أفكار أعدائنا، كأن ليس عندنا طبيب !! وليس لنا قدوة وزعيم ، وليس عندنا منهج ودين**

وإننا نتحدث عن الإسلام وفضائله ، وننسى الحديث عمَّن سيحمل هذا الإسلام ، ويقوم بأمره ، وننسى أنه مريض عاجز .

حتى إذا ما حانت الفرصة ، وسنح الوقت ، وجدنا : **إسلاماً بلا مسلمين حقاً ! وشعارات بلا عاملين صدقاً !**

فصلَّى اللَّهُ وسلَّم على من هُجِرَت سُنَّته ، وأُعرضَ عن سبيله .

□ □ □ □ □

أين نبدأ ؟

لذلك كنا وما زلنا ، نؤكد وندندن على أنَّ معالجة قضايا المسلمين ، والعمل لإعادة بنائهم ، وتهيئتهم لِدَوْرِهم الواجب عليهم ، والمرتقب عن قريب - بعون اللَّه تعالى وتوفيقه - إنَّما يكون منهم ، وفيهم ، وبهم ، وذلك بتصحيح عقائدهم ، وتقوية إيمانهم ، وإصلاح عباداتهم ، وتقويم مناهجهم ، وتسديد أقوالهم ، والرجوع بهم إلى ربهم ، كيما يكون معهم

﴿ إنَّ اللهَ لا يُغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم ﴾ [الرعد:١١]

وقال ﷺ : « ... سلَّط اللَّه عليكم ذلّاً لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم » (١)

إنَّ مَثل المسلمين : كمثل مريض له عدوّ يتربص به ، ويكيد له .. فهل يداوي نفسه ثم يتصدَّى لعدوِّه ؟؟ أم يتحرَّش بعدوِّه ، وهو عليلٌ عاجز لا استعداد عنده ولا قوة ؟!

« طبيب يداوي الناس وهو عليل » !!

ومثلهم : كمثل أسير وقع في قبضة عدوه .. فهل يثيره عليه ، ويخبره بما سيفعل به إن هو نجا منه .. وهو ما يزال تحت قبضته ؟ أم يصبر حتى ينجو منه ..

(١) سيأتي تخريجه

ثم يكون ما يكون (أليس منكم رجل رشيد)[1]!

ثم هَب أنَّه انتصر على عدوِّه ، فكيف يقدر على قيادة العالم ، وهو أعجزمن أن يُدير أمور نفسه ؟

بل إنَّ المسلمين أعجزُ من أن يديروا مؤسسة كبيرة ، أو مشروعاً عظيماً دون اختلافات ونزاعات !

فإذا قال قائلٌ : سلَّمنا أنَّه لا مناص من الإسلام ، وأنَّه الدين الذي فرضه اللَّه على العباد ، وآمنا أنَّه السبيل الوحيد لإنقاذ البشرية ، وأيقنَّا بحكمة أحكامه ، صغيرها وكبيرها ، وآمنا أن به الفلاح في الدنيا ، والنجاة في الآخرة ، وسلّمنا أنَّ قيام الإسلام لا يكون إلّا بقيام المسلمين ، وأنَّ في المسلمين - الآن - ما فيهم ، من الأمراض والأوبئةِ التي تُعجزهم عن القيام بدورهم ، وأن الحل الأسلم ، والطريق الأمثل هو :

معالجة أمراض المسلمين - قبل كل شيء ، وبناؤهم إيمانياً وتعبدياً ، وإعدادهم خلقياً ومعنوياً و .. **ثم** ... يفتح اللَّه عزَّ وجلَّ بما يشاء

﴿ **ومن أوفى بعهده من الله ...**﴾ [التوبة -١١١]

﴿ **فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده** ﴾ [المائدة:٥١]

---

(١) فإن قال قائل : وهل ينتظرك العدو حتى تعالج نفسك .

أجيب : - بأن المقصود أن لا تبدأ الجماعة الاسلامية الصدام ، وأن لا تثير عليها الناس .

- وأن البدء قبل التمكين مخالفة لهدي الأنبياء جميعا.

- لئن يهلك المسلمون وهم على السراط المستقيم ، خير لهم من أن يهلكوا وهم مخالفون لهدي نبيهم ﷺ وللمسألة تفصيل سيأتي في بعض الأجزاء إن شاء الله تعالى

وآمنا بقوله ﷺ : « .. حتى ترجعوا إلى دينكم » [1].

كل هذا سلّمنا به عن قناعة وإيمان ، وعن تجربة وبُرهان ، ولكن ؛ هل لكم أن تبيِّنوا لنا أهمَّ الأدواء ، وطرق علاجها ، وأخطر الأمراض ، وسبل الوقاية منها ، حتى يصبح المسلمون مسلمين حقاً ؟

وبعبارة أخرى :

ما هي الخطوات العملية والواقعية لمداواة هذا المريض ، والنهوض بهذه الأُمَّة ؟

□ □ □ □ □

---

(١) هو قطعة من حديث مكرر في هذا الكتاب .

أخرجه أبو داود (رقم ٣٤٦٢) ، وصححه شيخنا في « الصحيحة » (رقم ١١)

لوازم التشخيص

قبل الشروع في الإجابة عن هذه التَّساؤلات تفصيلاً ، وقبل النظر في أمراض الأمة تشخيصاً لا بُدَّ من ذكر بعض المقدِّمات المهمّة ، والمسلَّمات الضرورية ، والتي هي من أهم الأسس التي يجب التنبُّه لها ، وهي لوازم تشخيص المرض ، وضوابط معرفة أسباب الانحراف والفشل :

اللازم الأوَّل : الطبيب هو اللَّه :

إنَّ اللَّه سبحانه وتعالى هو أعلم من كل خبير بأمراضنا ، وأدوائنا ، وأسباب فشلنا ، وسرّ تأخّر النَّصر عنّا : ﴿ **ألا يَعلَم مَن خلقَ وهوَ اللطيف الخبير** ﴾ [الملك:١٤]

﴿ **والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله ولياً وكفى بالله نصيرا**﴾ [النساء : ٤٥]

وقد صحَّ عن النَّبي ﷺ أنَّه قال : « الطبيب هو اللَّه » (١)

والمقصودُ من هذا اللازم : أن نعرض أنفسنا على الطبيب ، وذلك بالتفتيش عن أمراضنا ، في كتاب خالقنا ، وسنة نبينا ... وأن لا نخترع أمراضاً بتشخيصنا ولا نبتدع فكراً في أسباب تخلُّفنا

وسيأتي تفصيل ذلك إن شاء الله تعالى

---

(١) أخرجه أحمد (٢/٢٢٦) ، وأبو داود (٧ ٤٢) ، وغيرهما ، وقد صححه شيخنا في « صحيح الجامع »

اللازم الثَّاني : وجوب الالتزام بتشخيص الطبيب :

هل يُعقل - أيها الأخوة - أن يخلقنا اللَّه سبحانه ، ويهمل وصف أمراضنا ، وطرق علاجها ، ولا يبيّنها لنا أوضح بيان ؟!

إنه ليس من كمال الشرع وحكمة الله تعالى أن يخلق اللَّهُ البشريةَ ، ويضع لها شرعها ، ولا يُبين لها أمراضها وأدواءَها ، وهو الخالق ، وهو الطبيب

ولذلك يجب أن يكون تشخيص المرض مبنيّاً على أصول الشرع ، وقواعد الدين الحنيف ، لا على أفكارنا وتجارِبنا ، وخبراتنا وعواطفنا ، ولا قياساً على مجتمعات أعدائنا

وإذا كان الأمر كذلك - أي أنَّ اللَّه سبحانه أعلم بأمراضنا - فإنَّ الإسلام - إذن - حدّد في الكتاب والسنة المرض ، وذكر العلاج ، فكيف يحلُّ لمسلم يؤمن بأن اللَّه عليم خبير ، أن يَحِيدَ عن هذا ، مهما كانت دعواه ، ومهما كانت مسوِّغاته ، ومهما كانت نيته !!

وعلى سبيل المثال :

فإنَّ الإسلام ذكر مرض التفرُّق والتنازع ، وأنَّه السبب الرئيس في ذلّ المسلمين وفشلهم ، ﴿ **ولا تَنازَعوا فَتفشَلُوا** ﴾ [الأنفال:٤٦]

« ... فإنَّه من يعش منكم فسيَرى اختلافاً كثيراً » الحديث [١]

فكيف يحلُّ - بعد ذلك - لداعية أو خطيب أو متفلسف ، أو مفكر ، أن يتناسى هذا المرض ، أو يتجاهله ، و يدَّعي أن سبب تخلف المسلمين وذلهم هو:

(١) سيأتي تخريجه

تأخُّرهم الحضاري ، أو تخلُّفهم الاقتصادي ، أو تكالب الأعداء عليهم !!

وإذا أعلمنا الله سبب تأخر النصر ، وهو عدم نصرنا له ، فكيف يجوز لمشخّص أو متفيهق أن يدعي : أن سبب فشلنا هو : النظام الدولي ، والوضع العالمي و...و...

بل إن رسول اللَّه ﷺ قد أخبر أنَّ هذه الأمراض ، إنَّما سببُها إعراضُ المسلمين عن دينهم ، وتفرقهم .. فكيف يليق بنا أن نعكس ، ونخالف رسولنا ﷺ والذي ندَّعي أنَّه قدوتنا وزعيمنا ؟!

وكيف يحلّ لمسلم أن يقبل هذا ، وإن زيّن صاحبُه رأيَه ، وشاغب عليه بأدلة ظاهرها القبول ، وحقيقتها التزييس والغرور ؟!

اللازم الثَّالث : وُجوب الالتزام بعلاج الطبيب :

ثم ما يقال عن التشخيص ، يقال عن المداواة .

فكما أنَّه لا يجوز أن نشخِّص المرض بعقولنا ، ولا بأفكارنا ، ولا بتجاربنا فحسب ، مستغنين بذلك عن شرعنا ، ، فكذلك لا يجوز وصفُ علاج من عقولنا ، وأفكارنا ، وتجاربنا ، ولا إيجاد دواء غير الدواء الذي وصفه اللَّه عزَّ وجلَّ ، أو وصفه رسوله ﷺ

وأدلة هذه اللوازم هي أدلة كمال الدين ، وهي كثيرة في الكتاب والسنة ، منها قوله تعالى ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم ....**﴾ [المائدة - ٣]

وقوله ﷺ « ما تركت شيئا يقربكم إلى الجنة إلا أمرتكم به »[1]

---

(١) أخرجه عبد الرزاق (رقم -٠ ٢٠١) وله شواهد عند الطبراني في الكبير (١٥٥/٢) ومسند الشافعي (٢٣٣) ، والبيهقي (٧-٧٦) وصححه شيخنا في الصحيحة (١٨٠٣) .

وقال أبو ذر : « لقد تركنا رسول الله ﷺ وما طائر يقلب جناحيه في السماء إلا ذكر لنا منه علماً »[1]

إنَّ من نافلة القول أن نقول : إنَّ الطبيب الذي يشخِّص المرض ، هو أعلم النَّاس بعلاجه ، فكيف باللَّه ربِّ العالمين علام الغيوب ، وبرسوله ﷺ المربِّي الأول لهذه الأمة ، والقدوة المثلى لهذه الشعوب ؟!

وإيضاحاً لما سبق نقول :

إذا اتفقنا على أن أخطر أمراض المسلمين هو التفرّق - كما بيّن ذلك الكتاب والسنة - واتفقنا على أنَّه لا علاج إلّا علاج الكتاب والسنة .. علمنا خطأ من يذهب إلى المعالجة بعقولهم ، وإلى المُداواةِ بمقترحات أفكارهم

كقول بعضهم : علاج التفرق هو : السكوت عن الاختلاف [2]!

وكقول آخرين :

« نتعاون على ما اتفقنا عليه ، ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه »!

والحق : إن كان العذر في إطار الخلاف المعتبر .. فنعم ، والتفرق فيه ضلال ، وإن كان المقصود في كل خلاف ، فلا ، وإلا فأين دليل هاتين القاعدتين اللتين أحدثهما بشرٌ ؟ وهل هذا علاج الكتاب والسنة ؟ ومن سبق بهما من سلفنا الصالح ؟! وهل عذر الصحابة والسلف كلَ من خالفهم ؟؟

(١) أخرجه ابن حبان (٦٥) والطبراني (١٦٤٧) والبزار (١٤٧) عن أبي ذر به ، وأحمد (٥-١٥٣) الطيالسي (٤٧٩) من طريق أبي الدرداء وطريق ابن حبان والطبراني والبزار صحيحة لذاتها وصححه شيخنا في الصحيحة (١٨٠٣)

(٢) الخلاف خلافان : خلاف يسع المسلم السكوت عنه ، وخلاف لا يسع المسلم السكوت عنه وهذا هو الذي أرَدنا ، وللمسألة تفصيلُ ليس هاهنا محله

وهكذا تتنازع الأفكار ، وتتضارب الأقوال ... ﴿ **ولو أنَّهم فَعلوا ما يُوعَظونَ به لكان خَيراً لهُم وأشدَ تثبيتاً** ﴾ [النساء:٦٦]

وكان يُغني عن هذه القاعدة ، ما وعظنا اللَّه به ، وما قعَّده لنا رسوله ﷺ ، وهو خيرُ لنا :

﴿ **وتعاوَنوا على البرّ والتَّقوى وَلا تَعاوَنوا على الإثم والعدوان** ﴾ [المائدة:٢]

« عليكم بسنَّتي وسنَّة الخلفاء الراشدين المهديِّين من بعدي ..» الحديث[١]

وعلى هذا فما عذر الصحابة في الخلاف عذرنا .. وما لم يعذروا لم نعذر

إذا تبيّن لك هذا ، فعليه قِسْ في علاج جميع أمراض المسلمين ، ولا تقبلنَّ علاجاً مهما كان مزخرفاً إلّا بدليل من الكتاب أو السنة ، وعلى منهج السلف الصالح ، لأن علاج التفرق ، لا يكون إلّا كما أمر اللَّه

﴿ **واعتصموا بحبل الله جميعاً** ﴾ [آل عمران:١٠٣]

وإن لم يكن حبل اللَّه هو الكتاب والسنة ومنهجُ السلف .. فلا بارك اللَّه في حبل غيرهم .

اللازم الرابع : لا مرض جديد في الأمّة ، ليس له علاج في الكتاب والسنة

إن البصير بالكتاب والسنة ، والمدرك لأصول الاسلام ومنهجه من جهة ، والمطلع على أحوال المسلمين وواقعهم قديماً وحديثاً من جهة أخرى ، يدرك أن لا مرض جديد حل بالأمة يحتاج إلى معالجة خاصّة ، ودواء جديد

وكيف يمكن لعاقل أن يتصوَّر أنَّ رسول اللَّه ﷺ علَّمنا أحكام التخلِّي[٢]

---

(١) سيأتي تخريجه

(٢) أي : آداب دخول الخلاء لقضاء الحاجة

وآداب الطعام ، وترك مثل هذه الأمور العظيمة ، لعقولنا المحدودة ، وأفكارنا الضيقة ؟!!

ولذلك لما ذكر رسول اللَّه ﷺ مرض الاختلاف بقوله : « ... فإنَّه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً » ، عَقَّب ذلك بذكر الدواء فقال: « .. فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديِّين من بعدي ، عَضُّوا عليها بالنواجذ » [1]

بل لقد كان رسول الله ﷺ يذكر فتناً تكون في آخر الزمان بعد مئات السنين ، **وكان يضع حلولاً لها** .. وكثيراً ما كان أصحابه رضوان الله عليهم - إذا ما سمعوا منه ذلك - قالوا « فما تأمرنا...»

وحديث حذيفة المشهور :

« كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير ، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني .... وفيه ذَكَر رسول الله أنه سيكون « دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها

قال : صفهم لنا قال : هم من جلدتنا ، ويتكلمون بألسنتنا

قال : فما تأمرني إن أدركني ذلك قال : الزم جماعة المسلمين وإمامهم ، قال : فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام قال : اعتزل تلك الفرق كلها ، ولو أن تعضّ على أصل شجرة حتى يدركك الموت ، وأنت على ذلك »[2]

---

(١) حديث صحيح أخرجه أبو داود (رقم ٤٦٠٧) ، والترمذي (رقم ٢٦٧٦) ، وأحمد (٤/ ١٢٦) وغيرهم ، وصححه شيخنا في « صحيح الجامع » (رقم ٢٥٤٩)

(٢) البخاري (٧٠٨٤) وغيره

وقال أبو ذر رضي الله عنه :

« تركنا رسول الله ﷺ وما طائر يقلب جناحيه في السماء إلا ذكر لنا منه علماً »[1]

وإذا كان رسول اللَّه ﷺ نفسه ، كثيراً ما يتوقف إذا ما سئل عن مسألة حتى يأتيه الوحي ؛ كما في حديث يعلى بن أمية ، أن رجلاً جاء النبي ﷺ مُتَضَمِّخاً بطيب ، فقال : يا رسول اللَّه كيف ترى في رجل ... فنظر إليه ساعة ، فجاءَه الوحي ثم .... »[2] الحديث ..

ومن تأمل الكتاب والسنة النبوية ، وجد فيهما كل شيء .. وجد فيهما الأمراض السابقة وعلاجها « إن من كان قبلكم ...» « إنما أهلك الذين من قبلكم ...»

ووجد الأدواء القادمة ودواءها ، « سيكون بعدي ....» « لا تقوم الساعة... » « إذا رأيتم ....»

وإذا كان تأخيرُ البيان عن وقت الحاجة لا يجوز في مسائل الحيض والنفاس ، فهل يجوز تأخيره في بيان أمراض الأمة وأدوائها ؟

﴿ وما كان الله ليضلَّ قوماً بعد إِذْ هداهم حتى يبين لهم ما يتَّقون ﴾ [التوبة:١١٥]

---

(١) سبق تخريجه صفحه (٤٠)

(٢) متفق عليه أخرجه البخاري (رقم ١٥٣٦ و ١٧٨٩ و ١٨٤٧ و ٤٣٢٩ و ٤٩٨٥) ، ومسلم (٨٣٦/٢)

اللازم الخامس : صفات المتصدر

من المسلمات عند المسلمين قولاً لا عملاً : أن يكون المتصدّر لكشف أمراض المسلمين ومعالجتها ، عالماً بالشرع ، مطلعاً على واقع الناس ، وإلا ضلّ وأضلّ الناس من ورائه ، وشخّص لهم أمراضاً ليست فيهم ، يخيّل إليه أنها فيهم ، ووضع لهم علاجاً في غير موضعه ، فزادهم ضعفاً على ضعفهم .

وإذا كان رسول اللّه ﷺ لا يقول من تلقاءِ نفسه ، فلا يخترع دواءً ، ولا يبتدع علاجاً ، بل يقول : ﴿ **إن أتّبع إلّا ما يوحى إليّ** ﴾ فما بال كثير من أهل زماننا ، يفتون بغير علم ، وهم أسرع فتوى من رسول اللّه ﷺ ؟! ويظنون أنهم أقدر على وضع حلول لهذه الأمة ومعالجتها ، والإعراض عن دواء الكتاب والسنة ومنهج سلف هذه الأمة ؟!

قال تعالى :

﴿ **ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ثاني عطفه ليضل عن سبيل الله ...**﴾[الحج : ٨-٩]

وقال ﷺ :

« إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد ، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء ، حتى إذا لم يُبق عالماً اتخذ الناس رؤساء جهالاً ، فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا »[١]

قال الإمام الشاطبي :

« فإنما يؤتى الناس من قبل جهالهم الذين يُحْسبون أنهم علماء» [٢]

---

(١) البخاري (١١/١٩٤) ، ومسلم (٢٦٧٣) وغيرهما .

(٢) الاعتصام (١/١٤٥)

خلاصة هذه اللوازم :

○ **أولاً** : لا حاجة للاجتهاد في أمراضنا وأدويتها ... فلاجديد وقد أغنانا اللَّه عزَّ وجلّ عن ذلك ؛ بأن بيّنها لنا أوضح بيان في الكتاب والسنة ومنهج سلف الأمّة

○ **ثانياً** : لا مرض جديد في الأمّة .. وإذن فلا علاج جديد

○ **ثالثاً** : لا يجوز لأحد التصدّر لتشخيص أمراض الأمة ومعالجتها إلا أن يكون عالماً بالكتاب والسنة ... ومدركاً لواقع الأمّة .

العقبات ...

إنَّ العقبات التي تعترض طريق المسلمين ليست بالقليلة ، والتحديات التي تواجههم ليست بالهيّنة ،

ويرى كثير من المسلمين أن عقباتهم تنحصر في وقوف أعدائهم في وجوههم ..

ولا شك أن كيد أعداء الله عز وجل عقبة أيما عقبة ، وأن كيدهم هذا لتزول منه الجبال ﴿... **وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال** ﴾ [ابراهيم -٤٦]

وإذا ما نظر المسلم المخلص إلى ما يكيده أعداء الله بالمسلمين في معظم بقاعهم ، انكمد فؤاده ، وتفتت كبده

أنى اتجهت إلى الاسلام في بلد تجده كالطير مقصوصاً جناحاه

ولقد طغى كثير من الظالمين في هذا العصر أكثر من طغيان فرعون .. وإذا كان طغيان فرعون دفعه إلى ذبح أبناء المسلمين ، وترك نسائهم أحياءً ، فإن هؤلاء يذبحون أبناءهم ، ويحرقون رجالهم ، وينتهكون أعراض نسائهم ، ويهدمون مساجدهم ، ويمزقون مصاحفهم ، وما ينتهون من بلد حتى ينقضوا على بلد آخر .. ولم يمرّ على المسلمين عهد أثر فيهم كيد أعدائهم تأثيره في هذا الزمان

وهذا الذي يكيده أعداء الله ، ويفعلونه بالمسلمين ، لم يعد خافياً على أحد ولكن الذي خفي على كثير منا ؛ كيفيّة رد هذا الكيد ، ثم سبيل النهوض بهذه الأمة ..! ما هي الطريقة الشرعية في العلاج والمواجهة .. ؟ هل هي البدء بمعالجة المريض نفسه ..؟ أم بمواجهة أعدائه ، وهو على هذه الحالة الراهنة ...؟

إن المتدبّر للكتاب والسنة اللذين هما مصدر تشريع المسلمين المتّبعين الصادقين ، يجد أن توجيهاتهما ، وأوامرهما قد انصبت على أن عقبات المسلمين من أنفسهم .. وأنهم هم مصدر بلائهم ...﴿ **وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم** ﴾ وإنهم إن أصلحوا أنفسهم ، تكفّل الله برد كيد أعدائهم ونصرهم عليهم ، مهما كانوا ومهما كادوا ،

﴿ **وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا إن الله بما يعملون محيط**﴾ [آل عمران - ١٢]

لقد غفل كثير من المسلمين على أن الصبر وتقوى الله عز وجل أثبت من الجبال الراسيات ، في وجه أعداء الله .. ذلك لكون الله - والحال هذه - ﴿ .. **مع الذين اتقوا والذين هم محسنون** ﴾ ومن كان الله معه ، ردّ الله عنه كيدّ عدوه ، وحينئذ يتحقق قوله تعالى : ﴿ **وما كيد الكافرين إلا في ضلال** ﴾ [غافر - ٢٥] وبعدئذ يكون النصر معه ويصبح التمكين حليفه

فإلى إزالة عقبات المسلمين الحقيقية ، وإلى معالجة أصل الداء ، وحقيقة الضعف

ويمكن أن نُجمل هذه العقبات في الأدواء التالية :

الداء الأول :

داء الجهل

الجهلُ الذي نعنيه ها هنا ؛ أبعدُ معنىً من الجهل الذي يتبادر إلى الذهن ، وأخص منه ، إذ المقصود بالجهل ها هنا هو : الجهل بحقيقة هذا الإسلام ، وبكنه التوحيد ولوازمه ، وبقواعد معرفة الحق .. كالجهل في التفريق بين البينة والتزيين ، والاتباع والابتداع ، والتأصيل والتمثيل

والجهل بقضايا المنهاج ، ووجوب الالتزام بها ، كحكم العقل مع الشرع ، والتصفية والتربية ، ومواكبة العلم بالتربية ، وطريقة التغيير ، وغير ذلك من القضايا

قال الإمام الشاطبي رحمه اللَّه :

« **فإنَّما يُؤتى الناس من قبل جُهّالهم ، الذين يُحسبون أنهم علماء** ، وإذا كان كذلك ، فاجتهاد من اجتهد منهي عنه ، إذا لم يستكمل شروط الاجتهاد ، ولما كان العامي حراماً عليه النظر في الأدلة والاستنباط ، كان المخضرم الذي بقي عليه كثير من الجهالات مِثْله - مثل العامي - في تحريم الاستنباط ، فإذا أقدم على محرم عليه - وهو الاجتهاد - كان آثماً بإطلاقه »[1]

---

(١) الاعتصام (١/١٤٥)

قلت : وربِّ الكعبة ؛ إنَّ بعض الناس الذين يتصدرون للفتوى في زماننا ، هم أجهل من عوام زمان الشاطبي ... لأنَّه - واللَّه - ما علم أصلاً ، ولا فهم قاعدةً

والعجيب أنَّ بعضهم لا يُجيز لنفسه الفتوى في دماءِ النساء - الحيض والنفاس - ... في الوقت الذي يفتي فيه في دماءِ الأمة وأعراضها ، وقضاياها العظيمة ومواقفها ، ومع ذلك فهم يقولون بالأولويات !!

ومعظم هؤلاء ينتسبون إلى العلم ، والاجتهاد ، أو يُنسبون إليهما ، ويُحتج عليك بعلمهم أو باجتهادهم ، وبعضُهم لا يعرف شروط الاجتهاد ، ولم تتوفر لديه آلته ، ولم يطلب العلم ، ولم يعلم مصادره ، بل إنَّ بعضهم لا يحفظ ولا يدرك من القرآن ، ولا من الحديث ما يؤهله لذلك

فهل يحتج رجل - عرف العلم - بأقوال هؤلاء في مقابل النصوص ... ؟

أَصناف المسلمين مع العلم والمنهاج :

● **صنفٌ** وُهب العلم ، وسَلك السبيل ... وجهل كثيراً من قضايا المنهاج ... وأحداث العصر ... وهذا ليس عيباً ، إلّا إذا عُرّفوا فأبوا ... ونُبّهوا فَعصوا ... فيكون كلامهم وفتاويهم ... - والحالةُ هذه - مصدرَ إزعاج

ومن هؤلاء من يظن أنَّ الإسلام علم مجرد ... ليس فيه تربية ولا منهجية ، ولا حكم في الأحداث المعاصرة !! فيكون علمه - والحالة هذه - عقبةً

ومنهم : من طلب العلم ، وعرف السبيل ، ولكنَّه ضيعه بعاطفته ، وفقده بارتجاله ، فغلَّب (فقه واقعه) على علمه ، وأحداث السياسة على فقهه !

ومن هؤلاء من هو متحزب ، ومنهم من سقط في الحزبية وهو لا يدري !!

● **وصنفٌ** عرف أركان الإيمان ، وبعض قواعد الإسلام والأحكام ، ولكنهم جهلوا العلم وفضله ، ومذهب السلف ولزومه ، وقضايا المنهاج وتفصيله ، وعرفوا السياسة من غير طريقها ، وأحداث الواقع من صحفها !

ومصيبتهم ، أنَّهم : لا يُخضعونها للعلم ، ولا لمذهب السلف ، كي يعلموا أحكامها ، وسبيل التعامل معها ، فهم يتصرفون كما يشاؤون ، ويعملون ما يشتهون ، فيُحكّمون عواطفهم ، ويسعون إلى مصالح أحزابهم ، من غير ضابط يضبطهم ، ولا عاصم يعصمهم ... وأنى لهم ذلك ؟! وقد فقدوه بفقدانهم للعلم ، وأعرضوا عنه لإعراضهم عن العلماء ، فلا العلمَ طلبوا ، ولا لفتاوى العلماء استمعوا ، فتخرَّج على أيديهم جماهير لا تقيم للعلم وزناً ، ولا للسلف الصالح قدراً ؛ دينهم عاطفتهم ، وهمّهم إسقاط حكامهم ، بأي وسيلة كانت وعلى أي طريقة حصلت !!

قال ﷺ :

« إنَّ اللَّه تعالى لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد ، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء ، حتى إذا لم يُبق عالماً ، اتخذ الناس رؤوساً جهالاً ، فسُئلوا ، فأفتوا بغير علم فَضَلُّوا وأَضَلُّوا » (١)

---

(١) البخاري (٣٤/١) طبع تركيا ، ومسلم (٢٠٥٨/٤)

● **وصنفٌ** آخر ليس لنا بهم شأن ، عليمو اللسان ، بديعو البيان ، راحلة السلطان ! فالواحدُ منهم : « لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلّا ما أُشرب من هواه » (١)

وقال ﷺ : « أخوف ما أخاف على أمتي كل منافق عليم اللسان » (٢)

وأما الصنف الذي لا يدخل في هذا الباب :

فهم العلماء العاملون ، والدعاة الربانيون ، إن غفلوا عن أمر فذُكِّروا ، تذكَّروا ، وإن أخطأوا فنصحوا .. رجعوا .. فلا يجمع العلم أحد ، ولا يحيط بفقه الواقع أحد ، وما غاب عن بعضهم عرفه الآخرون

ومن هؤلاء دعاةٌ - دونهم في العلم - يخطئون ، لتأثرهم بواقع المسلمين المؤلم ، وبسياسة الأعداء الخادعة ، يساعد على هذا عدم نضجهم العلمي ، أو انعدام خبرتهم الدعوية ، مع عدم إدراكٍ لبعض قضايا المنهاج التفصيلية ، وعدم التمييز بين خير الخيرين ، وشر الشرين ، ولكنهم إذا نصحوا انتصحوا ... وإذا روجعوا رجعوا ، فبالتعاون بين العلماء المخلصين ، والدعاة الصادقين ، يتم الخير ، وبالتناصح يكون الصواب ، كلٌّ يكمّل أخاه ، وكلٌّ ينصح أخاه ، لا بالتنافر والتباغض ، والتحاسد والتدابر

أين تكمن خطورة هذا المرض :

تتجلى خطورة مرض الجهل بحقيقة الإسلام والتوحيد : في ضعف الإيمان الشديد ، الذي يدفع المرء ليبيع ويشتري دينه بعرض من الدنيا ، من درهيمات معدودات ، أو متاع زائل ، أو منزلة خادعة مؤقتة

---

(١) مسلم (١٢٨/١) ، وأحمد (٣٨٦/٥) .

(٢) أحمد (٢٢/١ و ٤٤) ، وصححه شيخنا في « صحيح الترغيب » .

وتكمن خطورة هذا المرض في عدم شعور المريض بمرضه ، إذ يوحي إليه مرضه أنَّه سليم معافى ، ما دام يدعو إلى الإسلام ، ويُضحّي من أجل الإسلام ، ويعذب في سبيل الإسلام

أرأيت دعاة التجديد[1] !؟ كم يظنّون أنهم على هدى ، وهم لا يدركون أهمية العلم ، وقدر الاتباع ... فيعطّلون كثيراً من الأحكام !

أرأيت دعاة الفكر !؟ كم يعتقدون أنهم على الصواب ، وهم يقدمون فكرهم على منهج سلفهم ، ويحكّمون عقلهم في شرعهم ، وهم يظنون أنهم يحسنون صنعاً !

أرأيت الذين يُحْدثون الطرق في الإسلام ، بدعوى إباحة الوسائل ؟! كيف عطلوا طرق النَّبي ﷺ في الدعوة ، في إقامة الحكم ، في معاملة الحكام ... وفي غير ذلك ؟!

ولو أنهم تعلموا العلم الصحيح ، واعتقدوا وجوب اتباع طريق النبي ﷺ ، لأدركوا الفرق الدقيق بين الوسائل المباحة والطرق التوقيفية ، ولكنهم - بإعراضهم عن العلم - خلطوا بينهما ، وجعلوها جميعاً من باب الوسائل المباحة ، ولو أنهم أدركوا مغبة عدم التفريق ... لما فعلوا ... فإنَّ عدم التفريق يعني : استبدال الجمهورية بالخلافة ، والانتخاب بالبيعة ، والمجالس النيابية بالشورى ، وهذا تعطيل لسنن المصطفى ﷺ ، وإحياء لسنن الكفار ، وهذا مصداق ما أخبر به ﷺ :

---

(١) دعاة التجديد : هم الذين يدْعون إلى تجديد دين الله نفسه من عقيدة أو عبادة أو أصول أو قواعد وهذا شيء - وهو باطل - ودعوة الناس لتجديد دينها بالله شيء آخر ، وقد عُقد لهم فصل خاص في الجزء الثالث من « السبيل »
وللوسائل والطرق تفصيل في محاضرة يسّر الله طبعها

« لتتبعن سَنن من كان قبلكم ، شبراً بشبر ، وذراعاً بذراع ، حتى لو سلكوا جحر ضب لسلكتموه... قالوا : اليهود والنصارى؟ قال : فمن؟ »[1]

كما يتجلّى الجهل بحقيقة الإسلام والتوحيد في ضعف الإيمان الشديد ، الذي يجعل المرء يبيع ويشتري دينه بعرض من الدنيا ، من درهيمات معدودات ، أو متاع زائل ، أو منزلة خادعة مؤقّتة

عوارض مرض الجهل وصوره :

ومَن أصابه هذا المرض : لم يفرّق بين العلم والحفظ ، وبين النقل والفقه ، ولم يميز بين العالِم والمتعالم ، وبين الفقيه والحركي ، وبين البصير والزعيم ، فَيَستفتي من ليس أهلاً للفتوى ، ويَتَّبع من ليس أهلاً للاتباع .

ومِن صور هذا المرض ومظاهره عند بعض الدعاة : توزيعُ هذا الإسلام على مناطق وحدود ، رسمها أعداء الإسلام ، فلا يدركون عالمية هذا الإسلام ، إلّا بالخطب والشعارات ، وأما أحكام البيعة ، والهجرة ، والأخوَّة ، فقد مضى - عندهم - عهدها ، وولّى زمان أحكامها

ولقد رأيت معظم الشعوب ، لا تثق إلّا بعلماء بلدها ، ولا تستفتي غيرهم ، إلّا من رحم اللَّه من أصحاب الاتباع ، أصحاب طلب الدليل ، لأنهم علِموا أنَّ الدليل لا يتعلَّق بزمان ولا مكان ولا رجال

من مضاعفات هذا المرض :

وفي غياب التربية الصحيحة التي تعتمد على التعلُّق بالدليل .. يتعلق النَّاسُ بالرجالِ ، ويتحرَّكونَ بالعاطفة ، وينشغلون بالسياسة ، ويجرون وراء الأحداث ،

(٢) البخاري (رقم : ٣٤٥٦ ، ٧٣٢٠) ، ومسلم (٤/٢٠٥٤) .

وبما عليه الأعداء ، فيُلهيهم هذا عن تربية أفرادهم التربية النبوية الصحيحة ، التي أُسسها العلم والفهم والبصيرة والدليل ... ﴿ **أَدعو إلى الله على بَصيرةٍ** ﴾ [يوسف:١٠٨] ، وهل تظن أن هؤلاء سيفلحون ... وهم عن العلم معرضون ؟!

وفي غياب التربية النبويّة أيضاً - التي تعطي العلم حقه ، وتقدره حقَّ قدره - ، يكثر الذين يستهزئون بالعلم وبأهله ، وهؤلاء لا شأن لنا بهم ، وحسيبهم اللَّه في الدنيا والآخرة ، وسوف يرون عاقبة استهزائهم بالسنن والواجبات ... وأتباع السلف الصالح

قال تعالى : ﴿ **وبدا لَهم سيِّئاتُ ما كَسَبوا وحاقَ بهم ما كانوا بهِ يستَهزئون** ﴾ [الزمر:٤٨]

وقد فعلها قومٌ من المنافقين قبلهم ، فاستهزؤوا بأصحاب السنن والواجبات ، في غزوة تبوك ، فقال أحدهم : « ما أرى قراءنا هؤلاء إلّا أرغبنا بطونا ، وأكذبنا ألسنة ، وأجبننا عند اللقاء » فنزل فيهم قوله تعالى : ﴿ **ولئن سألتهم ليقولنَّ إنَّما كنا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم** ﴾ [التوبة:٦٥] (١)

فهذا حكم من استهزأ بأصحاب السنن والواجبات ... فما حكم من استهزأ بالسنن والواجبات نفسها .. وما عاقبته ؟؟!!

فحذارِ أن تجالسهم ، فيصيبك ما يصيبهم

قال تعالى : ﴿ **وقد نزَّل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يُكْفَرُ بها ويُستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنَّكم إذاً مثلهم إنَّ الله جامع المُنافقين والكافرين في جهنم جميعاً** ﴾ [النساء:١٤٠]

(١) رواه ابن جرير في « تفسيره » تحقيق محمود شاكر (١٤/٣٣٥) بسند حسن

علاجه :

وعلاج هذا المرض يكون :

- بإدراك أهمية العلم في ديننا ، دين العلم

- معرفة حقيقة العلم والتفريق بينه وبين التعالم ، ومعرفة صفات العلماء الراسخين ، والتفريق بينهم وبين الزعماء والحركيين والدعاة والمتعالمين

فليس كل من دعا إلى الإسلام أو تكلم فيه كان عالماً !!

- السعي الصادق لطلب العلم ، ونشره بين المسلمين ، وبخاصة شباب هذه الصحوة المباركة

- معرفة قضايا المنهاج وحكمها من الكتاب والسنة ، على ضوء سيرة سلفنا الصالح .

- رد كافة خلافاتنا إلى العلم - لا إلى عواطفنا - ومصالحنا الظاهرية .

العلم قال اللّه قال رسوله قال الصحابة ليس بالتمويه

- معرفة المرء قدر نفسه ، والوقوف عنده ، وذلك ؛ بقبول حكم الأعلم .

واللّهَ أسألُ أن يشفي مرضى المسلمين .

الداء الثاني :

الاختلاف والتفرُّق

داءُ الاختلاف والتفرق داءٌ عظيمٌ ، وشرٌّ مستطيرٌ ، ووبالٌ وبيلٌ على أصحابه في الدنيا والآخرة

ولقد استشرى هذا الداء في أمتنا في كل شيء ، وأتى على كل شيء ، فلم يدع جماعة ولا فرداً ، ولا قائماً ولا قاعداً ، ولا عالماً ولا جاهلاً ، إلّا نال منه قسطاً وافراً

وقد وقع الخلاف في هذه الأمة ؛ في عقيدتها ، ومناهجها ، وشريعتها

من أَسباب الخلاف :

ولقد كان سببَ هذا الخلاف وأصله : **شذوذُ الفرق الإسلاميّة عن منهج الطائفة المنصورة** ، فخالفوها في الأخلاق ، والدعوة والعبادة ، وحتى في صفات اللّه ، وطرق الاستنباط ، وسبيل الوصول إليه سبحانه ، ودرب التمكين في الأرض

وخالفوها في سنة نبيه ﷺ ، وفي حوارِيِّيه ، فمن مكفّرٍ لبعضهم ، وعاصمٍ لآخرين ، ومن مُجهّلٍ لهم ، مقدّمٍ فلسفته ومنطقه على منهجهم وسبيلهم

ومن أعظم ما ابتُلي به المسلمون - اليوم - ، تفرُّقُهم باسم التنظيم ، أو

برسم الحزبية، أو اختلافُهم لاختلاف بلدانهم وأنسابهم .. وأسوأ من هذا كله ، تفرقهم بسبب الحدود التي صنعها أعداؤهم من الصليبيين الحاقدين .

ولقد حارت العقول في هذا الخلاف ، وسبل النجاة منه ، وكثر لأَجله القيل والقال ، وطال في بحثه المقام والمقال ، ولا نجاة - واللَّه - ولا خلاص منه، إلّا باتباع طريق سلف هذه الأمة ، ومنهج الطائفة المنصورة

مضاعفاته :

ولم أرَ داءً أعظم ضرراً ، ولا أشدَّ فتكاً بالأُمم من هذا الدَّاء ، فإنَّه يأتي على الأمة العظيمة ، فيفرق صفوفها ، ويشتت شملها ، ويفشّل جهودها ، ثم يجعلها هباءً منثوراً ، كأن لم تكن مجتمعة بالأمس ويمرّ بأعظم الأمم وأقواها ، فيجعلها من أضعف الأمم وأحقرها !

وما أُمة الشيوعيين - الاتحاد السوفياتي - عنا ببعيد ، إذ أصبحت كأمس الذاهب[1] ،

وحتى أمة الإسلام ، لم تنج من هذا المرض ، إذ أتاها وهي عزيزة الجانب ، منيعة الأسوار ، شامخة الأنوف ، فجعلها في حال من الضَّعف والذل لا تُحسد عليه .. ولهذا ، كان الاختلاف والتفرق أوسع شراً ، وأعظم ضرراً من تعاطي الفجور ، وشرب الخمور [2]

(١) ليس المقصود سقوط الاتحاد السوفياتي ، فقد سقط لأسباب كثيرة ، ولكن المقصود ذهاب قوته بعد تفرق بلدانه .

(٢) التنبيه على خطر معصية بمقارنتها بمعصية أخرى من الأساليب النبوية ، فقد قال ﷺ : « لأن يزني الرجل بعشر نسوة خير له من أن يزني بحليلة جاره » ، رواه أحمد (٦/٨) وغيره ، وجود اسناده شيخنا في الصحيحة (٦٥)

ولا أدلَّ على هذا مما حصل في صدر الأمة ، فقد باع أحد الصحابة خمراً مخطئاً [1]

وشربه بعض السلف مخطئين متأولين قوله تعالى :

﴿ **ليس على الذين آمَنوا وعملوا الصالحات جُناح فيما طَعِمُوا** ﴾ [المائدة:٩٣] [2]

ولم ينعكس هذا الفعل على الأُمة بشيءٍ ، كما انعكس عليها نتائجُ الاختلاف بين علي ومعاوية رضي اللّه عنهما .

ففي ثلاث ليال وقع في الأمة سبعون ألف قتيل ، خلفوا وراءَهم مائةَ ألف أرملة ، ومائةً وخمسين ألف يتيم ، بغير ذنب فعلوا ، ولا جناية ارتكبوا

ثم ما جرَّ ذلك الخلاف - بعدُ - على الأمة ، من الشقاقات المتتابعة ، والانفصالات المتتالية عن جسد الأمة ، وما تبع ذلك من معارك ضارية ، وحروب طاحنة بين تلك الفئات ، من خوارج وشيعة و ... و ... الأمر الذي شغلهم عن عدوّهم ، وعمّا خُلقوا لأجله .

وكانت الفتوحات في زمن الفتنة أقلَّ منها في أي زمن آخر ، إن لم نقل كانت معدومة

وياليت الأمر اقتصر على هذا الحد ، إذن لهانت المصيبة ، وسهل الخطب ! ولكن هذا الخلاف سرى شرُّه إلى وقتنا هذا ، ولن ينتهي إلى يوم القيامة - إلّا أن يشاء اللّه سبحانه وتعالى -

(١) البخاري (رقم ٢٢٢٣ ، ٣٤٦٠) ومسلم (١٢٠٧/٣)

(٢) أخرجه الحاكم (٣٧٦/٤) وصححه ووافقه الذهبي ، وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٣/ ١٦١) لأبي الشيخ وابن مردويه

وما سقطت ديار المسلمين في أيدي الأعداء ، وما سُلبت الأندلس ، وما جرى فيها من دماء إلّا بسبب الخلافات والبعد عن الله تعالى .

وإذا كانت الخمر أم الخبائث ، فإنَّ التفرق أبو الرزايا والبلايا والمصائب !!

وإن لم يكن من ثمار التفرق إلّا الفشل : لكفى به شرّاً عظيماً :

﴿ ولا تنازَعوا فَتَفشَلوا وتَذهبَ ريحكُم ﴾ [الأنفال:٤٦]

فهل أدرك مسببو الخلاف ، ومُسَوِّغو التفرق خطورته ؟! وهل تبلغ نياتهم - مهما حسنت - حسن نية معاوية رضي اللّه عنه وقد حصل ما حصل ؟!

أَعجب العجب :

ومع هذا كله ؛ فإنك تجد من الدعاة من يُصرُّ على إغفال هذا الموضوع وتناسيه ! بل وأعظم من ذلك أن تجد أُناساً يُسوِّغون الاختلاف ، ويُجيزون التفرق ، بدعاوى باردة ، وآراء سخيفة ، رُغم ترهيب تلك النصوص من التفرق ، وتحذيرها من الاختلاف :

﴿ إنَّ الذين فرَّقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء ﴾ [الأنعام:١٥٩]

﴿ ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءَهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم ﴾ [آل عمران:١٠٥]

﴿ ولا تكونوا من المشركين من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون ﴾ [الروم:٣٢]

والأدهى من هذا والأنكى : أن تجد من يدافع عن التفرق ، بل ويسعى إليه ، ويُعادي ويناصب من يحذّر منه ، **تحت ستار الحزبية البغيضة ، التي هي أم**

التفرق وشره

تسويغات باردة :

وإذا كان عندك سعة صدر ، وحبٌّ للفكاهة ، فاسمع لتسويغاتهم التي يحاربون بها اللَّه ورسوله ﷺ وهم لا يشعرون :

« إنَّ التفرق فيه خير ، لئلّا تقدر أمريكا على السيطرة علينا »! والعياذ باللَّه.

« إذا كنا أمة واحدة ... استطاع أعداء الإسلام أن يتحكّموا فينا .. وإذا كنا متفرقين ، لم يستطيعوا السيطرة علينا » !

« إنَّ التفرق ظاهرة صحية » !

« اختلاف أمّتي رحمة » [1] !

« إن المشاغبين - وهم عندهم الذين يدعون إلى توحيد الأمّة بتوحيد اللَّه - يفرقون الأمة » !!

والحقيقة أنَّ مثل هذه الأقوال ، وتيك الأفكار ، ما هي إلّا ضلال وزيغ ، وخبل وتخريف ، وحماقة وتحريف ، ولربما كانت كفراً ، والعياذ باللَّه

إنَّ ضلال هذا المنهج ، ليفطر أكباد المخلصين الذين أصغوا إلى كلام ربهم ، وسعوا للعمل بسنة نبيهم

وهذا من أوضح الأمثلة على أصحاب الأهواء ، وعلى عدم التزامهم منهج الإسلام ، رغم دعواهم العريضة بذلك ، ودفاعهم عن الإسلام ، ووقوفهم في وجه الأعداء وجهادهم ؛ فإنَّ الخوارج كانوا أعظم منهم جهاداً ، وأكثر عبادة ...

(١) هذا حديث لا أصل له ، راجع « الضعيفة » (٥٧) لشيخنا

وقد قلت مرّة جواباً لأحدهم : إذا كان التفرق ظاهرة صحية ، فإنَّ الاعتصام ظاهرة مَرَضِيَّة !!

فهل من متعظ ؟

مناقشتهم :

قل لهؤلاء : هل الأمة مفرّقة أم موحّدة ؟

فإن قالوا : « موحّدة ، وهذه الاختلافات اختلافات عارضة ، وظاهرة صحية ... » !!

فَأَعرِض عنهم ، واعلم أن اليهود أفهم لدينهم من هؤلاء لإسلامهم ، لأنَّ في قولهم هذا تكذيباً للرسول ﷺ الذي قال : « ستتفرق أمتي ... » وهم يقولون : « لم تفترق أمته » !!

وإن قالوا : مفرقة متنازعة

فقل : هل من خطورة من هذا التفرق ... ؟

فإن قالوا : لا

فقل : قال تعالى : ﴿ **وَلا تَنازَعوا فَتَفشَلوا** ﴾ [الأنفال:٤٦] ، وأنت تقول : لا نَفشَل .. فمن نُصَدِّق ؟

فإن أقرّ بذلك ....

فقل : هل يجب أن نُزيل هذا التفرق ... ونتجنب هذا الخلاف ؟

فإن قالوا : نعم

فقل : هل نضع له حلولاً من أفكارنا ، أم من كتاب ربنا وسنة نبينا ﷺ ؟

فإن قالوا : حسب الظروف ...

فقل : إنَّ ربك أعلم بالظروف منك ، وكيف يعلمنا أحكام تناول الطعام ، ولا يعلمنا أحكام الانتهاء من الخلاف

فإن قالوا : إنَّ الاختلاف لن ينتهي ، واحتجُّوا عليك بقوله تعالى : ﴿ ولا يَزالونَ مُختَلفينَ إلّا من رَحِمَ ربُّك ﴾ [هود:١١٨] ، وقوله ﷺ : « وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين ملّة » [١]

فقل : هل فهمتم هذا من أنفسكم أم من أئمَّة التفسير ؟

فإن قالوا : من أنفسنا

فقل : هذا هو التقوّل على اللَّه ، وعلى كتابه ، وعلى سنة نبيّه ﷺ بغير علم ، وهذا هو الذي خاف منه أبو بكر ولم تخش أنت منه

ثم قل لهم :

أولاً : قال أئمَّة التفسير وعلى رأسهم مجاهد - رحمه اللَّه - في تفسير هذه الآية في المختلفين : « أنهم أهل الباطل » ﴿ **إلّا مَن رحِمَ رَبّك** ﴾ قال : فإنَّ أهل الحق ليس فيهم اختلاف »[٢]

وأما حديث الافتراق : فهو إخبارٌ من النَّبي ﷺ بهذا الشرّ الذي يجب أن نتجنَّبه ، لا أن نُجَوِّز به الخلاف ونسوغه .

وبعبارة مختصرة :

إنَّ الحديث للإخبار والترهيب ، وليس للإلزام والتسويغ ،

---

(١) الترمذي (٥/٢٦) وغيره ، وحسّنه شيخنا في « صحيح الترمذي » .

(٢) راجع تفسير ابن جرير ، وابن كثير عند هذه الآية

ومثل هؤلاء كمثل من احتج على شربه للخمر بحديث : « يشرب ناس من أمتي الخمر يسمونها بغير اسمها »[1] فماذا يقال له ؟

ثم قل لأيٍّ من هؤلاء : انظر كيف فسّرت القرآن بعقلك ، وخالفت أئمَّة الهُدى بهواك ، وعطّلت سنة رسول اللَّه ﷺ بآرائك ، وسوغت أعظم ذنب ارتُكب بحق الأمة الإسلامية بعد الشرك بأفكارك

ولو أن متبعاً للسنة ترك قول إمام في **مندوب** قد صحَّ الدليل بخلافه ، ووافَقَه على ذلك الأئمَّة الآخرون ... أقمتم الدنيا ولم تقعدوها .. وأما أن تخالف الأُمة جميعها في دينها ، وتفسير كتاب ربها ، فهذا جائز !!

هل الاعتصام محال :

فإن قال : « لكن الخلاف لا ينتهي .. والاعتصام لا يمكن »

قل : سبحان اللَّه ! كيف يأمرنا اللَّه تعالى بالاعتصام : ﴿ واعتَصموا بحَبلِ الله جميعاً ﴾ [آل عمران:١٠٣] ، ثم نقول : لا يمكن ! إنَّ هذا يعني : أنَّ اللَّه يأمر بما لا يمكن فعله ... وهذا ظلم ، وحاشاه سبحانه من ذلك ، فإنَّ اللَّه عزَّ وجلَّ لا يأمر إلّا بالممكن : ﴿ لا يُكلِّف الله نَفساً إلّا وسعَها ﴾ [البقرة:٢٨٦]

إذن ؛ فالاعتصام ممكن ، وسبب عدم تحقيقه راجعٌ إلى أنفسنا ، ومن إعراضنا عن الاهتداء بهدي كتابنا

---

(١) النسائي (٣١٢/٨ ، ٣١٣) ، وصححه شيخنا في « صحيح الجامع » (٨٠٩٢)

لأن كل أَمْرٍ أَمَرَ اللَّه به أو نهى عنه فلازمه أمران :

- **الأول** : أن يبيّن لنا هذا الأمر ، وكيفية أدائه وفعله .
- **الثاني** : إمكانية فعل هذا الأمر ، أو الانتهاء عن هذا المنهي عنه

فإذا أمر اللَّه بالصلاة فلازم ذلك :

أنْ يبين اللَّه - سبحانه - كيفيتها وأحكامها ...

وأن يكون بمقدور العبد فعلُها ، لأنَّ اللَّه لا يكلِّف بما لا يُطاق .

وهكذا الاعتصام ، وهكذا كل أمر ونهي ...

فإذا سلَّم لك ولا محالة - إن كان منصفاً مخلصاً - ، فقل : لا شك إذن أنَّ الأمة متفرقة ، ولا شك أن التفرق شر ، ولا شك أن الحل موجود في الكتاب والسنة ... فتعال معنا نبحث عنه ، ونتمسك به ، متعاونين متناصحين ، لا مسيّبيين ولا مسوّغين

وسوف نأتي على ذكر الدّواء إن شاء اللَّه تعالى

الداء الثالث :

سوء الأخـــــــلاق

وأما داء سوء الخلق ، فهو : آفة الآفات ، وشر السيئات ، وبليّة البليات

ولا يخفى على عاقل ما لسوء الأخلاق من عواقب وخيمة ، ونتائج سيئة

وهو أكبر من قطيعة يوم أو يومين ، وأعظم من مخاصمة بين رجلين

وأشمل من كلمة نابية تقال ، أو أسلوب جافٍّ يتبع ، إنّه يشمل الإنسان : كل الإنسان ، حركته وسكنته .. قوله وفعله .. أخذه وإعطاءه

خطورته :

لا تقل خطورة مرض سوء الأخلاق عن الأمراض الأخرى :

إنَّ خطورته تكمن في إفساد القلوب ، وتشتيت الأبدان ، وفشل الجهود ففيه : تُقطّع الأرحام ، وتنتشر الشحناء ، وتعم البغضاء ، وتتكدر النفوس فلا تصفو القلوب للمحبة ، ولا تتهيأ النفوس للتعاون والأخوّة ، ولا تأنس الأرواح للتفاهم والألفة

وللشيطان على هذه الأمة بابان هما من أوسع أبوابه : التفرق ، وسوء الخلق وإذا حلَّ سوءُ الخُلُق بديار قوم ؛ أتى على الأخضر واليابس ، وفرق بين

الأخ وأخيه ، والابن وأبيه ، والمرء وزوجه

وإذا حلّ بديار قوم .. فسلّم عليهم سلام الأموات ...

وإنّما الأمم الأخلاق ما بقيت   فإن همُ ذهَبت أخلاقهم ذهبوا

وخطورته تَكمُن في أن المريض بسوء الخلق لا يدرك أنَّه مريض ، ولذلك ترى المسلم - في كثير من الأحيان - يدرك أنَّه يغتاب وينمُّ ويغش ويكذب ، ولكنه لا يدرك أنَّه سيِّىء الأخلاق ، وكيف يدركه ؟! وهو مصاحبه في مسائه وصباحه ، وضجيعه في فراشه ، ومرافقه في حلّه وتَرحاله ، بل هو ملازم للسانه ملازمة لعابه ، ومخالط لقلبه مخالطته لدمه

وإنَّ كثيراً من أصحاب الأخلاق السيئة يظنون أنفسهم من أحاسن الناس أخلاقاً ، ولذلك لا يتداوون ، ولا يسعون إلى الدواء !!

ومن ها هنا تظهرُ خطورة هذا المرض ، لأَنَّه يتفاقم ويزداد ، ويفشو بين العباد ، فيهلك الحرث والبلاد

من أَسبابه :

وإنَّ مما يزيد من انتشاره ، وتفشيه ، أنَّه من الأمراض المعدية ، فإذا نشأ الطفل بين أبوين متنازعين ، سيئي الأخلاق ، بذيئي الألفاظ ... فما عساه أن يكون ... ؟

وإذا ترعرع الطالب في مدرسةٍ، اعتاد مدرسوها على الجفاء والفحش ، وطلابها على الثرثرة والبذاءة ، فماذا يتوقع أن يصبح ... ؟

وإذا شبَّ الشاب في مجتمع سماته الحقد ، وسيرته الحسد ، وأخلاقه التباغض والتلاوم ، وأفعاله الجريمة والفاحشة .. فماذا يُتصور أن يصير ... ؟

إنَّ مما لا شك فيه ، أنَّ للبيئة أثرها الذي لا ينكر ، وقصةُ الرجل الذي قتل تسعاً وتسعين نفساً ثم أتبعها بواحدة فأكمل بها المئة مشهورةٌ ، وأن العالم أفتاه بتغيير بيئته ، وقال له : « انطلق إلى أرض كذا وكذا ، فإنَّ بها أناساً يعبدون اللَّه، فاعبد اللَّه معهم ، ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء » [1]

وقوله ﷺ : « تحوَّلوا عن المكان الذي أصابتكم فيه الغفلة » [2]

فهذه أدلّةٌ تبيِّنُ ما للبيئة من تأثير بالغ مباشر وغير مباشر في توجيه الفرد وتربيته

وفي الواقع من الشواهد ما لا يخفى على عاقل متدبر

وينشأ ناشىء الفتيان فينا على ما كان عوَّده أبوهُ

أزمة أخلاقية :

والحقيقة التي لا مفرَّ من الاعتراف بها ، أنَّنا نعاني من أزمة أخلاقية حادة ، انتشرت في معاملاتنا ، وتفشّت في مجتمعاتنا ، مهما حاولنا التستر عليها ، ومهما خدعنا أنفسنا وسعينا للتكتّم عليها

وليس مبالِغاً مَن قال : إنَّ هذا المرض من أكثر الأمراض انتشاراً بينَ

---

(١) مسلم (٤/ ٢١١٨) وغيره .

(٢) أبو داود (رقم ٤٣٦) وغيره ، وصححه شيخنا في « صحيح الجامع » (رقم ٢٩٢٦)

المسلمين ، وعلى كافّة الأصعدة ، وفي مختلف المحاور ، بدءاً من **بعض** طلبة العلم ، مروراً بمختلف طبقات المسلمين

وإلّا ؛ فأين التكامل ؟ ... أين التسامح ؟ ... أين التعاون ؟ ... أين التناصح ؟ ...

بل أين التآخي ؟ ... أين التطاوع ؟ ... أين التحابُّ ؟ ...

بل أين آداب المجالس ؟ ... وآداب التخاطب ؟ ... وآداب الخلاف ؟ ...

أين طيب الكلام ؟ ... أين حسن اللقاء ؟ ...

أين البشاشة التي تعلو الوجوه فتوحي في القلوب السرور والابتهاج ... ؟!! فتدفع المسلمَ نحو العمل والتعاون ، والتسامح والتناصح ، وهو أدنى ما يمكن فعله من حسن الخلق

إننا وبكل صراحة شُغلنا بغيرنا عن أنفسنا

ولقد حلّ هذا المرض بأمتنا فكان لها منه نصيب وافر ، فزاد الإبَّالة ضِغثاً ، والمريض وهناً

سياحة بصرية :

فإذا أردت أن تقف على اليقين ، فقلّب البصر في أحوالنا ، ثم أرسله على مجالسنا ، وأوغله في مناقشاتنا ، أدخله في بيوتنا ... ثم انظر ... ماذا ترى ؟

ترى العجب العجاب ... ثمَّ ارجع البصر مرات .. ينقلب إليك البصر ، وهو خائب حسير على ما فرطنا في جنب اللّه ، وفي حق أنفسنا !

حسير على ما فرّطنا في آدابنا ، حزين على ما بدّلنا في أخلاقنا ، مبتئس لما حلَّ بيننا

لقد أبدلنا التطاوع معاندة ، والتحابُّ تباغضاً .. وأخلفنا البشاشة عبساً ، واللطف وحشةً وفظاظةً .. وعوضنا الستر فضاحة ، والتعاون تدابراً ، والتناصح تلاوماً ...

وصار سوء الظن دليلاً واتهاماً وبهتاناً !! نفتري به على الأبرياء حقداً وحسداً ، أو انتصاراً لأنفسنا ، أو دفاعاً عن حزبياتنا !!!

لا .. شعار عصري للمسلمين :

لقينا رجلاً حديثَ عهدٍ بالإسلام ، سألناه أسئلة كثيرة وكان منها :

ما الذي تلاحظه على لقاءات المسلمين بعضهم مع بعض .. ؟

فقال : الشيء الكثير ... رفع الأصوات ، مقاطعة الحديث ، الغضب لكل شيء ، وعبوس بعضهم مع بعض ، أكثر مما هو مع غيرهم ...

ثم قال : وأعجب شيء لاحظته عند المسلمين ، أنَّ أحدهم إذا استفتح كلامه مع أخيه أو أرادَ أن يرد عليه ، قال : لا .. ثم يستأنف كلامه !

وما كاد ينتهي من كلامه .. حتى قال أحدنا لصاحبه : « لا .... » ثم تتبّعنا - بعد ذلك - حالنا ، فوجدنا الأمر كما قال !

تصورات وتأملات :

تصوّرْ حادثةَ طلاقٍ تقعُ ؛ فماذا يكون .. من الغيبة والنميمة ، والقيل

والقال ، وضياع الأوقات ، وما يجرّ على العائلتين من تباغض وتدابر ، فضلاً عما يسببه لهما ذلك من سوء سمعة ، وربما يصل إلى البهتان والافتراء ، بل إلى الاقتتال ؟!

تأمل عالماً يخطىء في مسألة ، أو داعية يخطىء في أسلوب ، أو محاضراً يخطىء في عبارة ، أو قاضياً يقضي في قضية ليس في صالح أحدهما ، فما عساك أن ترى من سوء الأخلاق ، وتسمع من رفع الأصوات ، وبذيء العبارات ؟!

وتأمل أحياناً خصومة تقع بين اثنين ، كم يكون بينهما من الفجور ، والكذب وإشفاء الغليل ، وبث السم ، مع سعي السعاة ، بإشعال نار الخصومة وَوَقْد نار العداوة ، لتزيد النار استعاراً ، فتنتشر شرقاً وشمالاً ؟! فتأتي على ما بقي من أخوة فتحرقها ، وعلى ما بقي من تقوى فتئدها ، وكأننا - والعياذ بالله - خُلقنا لهذا ومَرَدْنا عليه !

وانظر معي ماذا يحصل بين الأحزاب الإسلامية من عصبيات مقيتة ، وخصومات شديدة ، وعداوات مريرة ، وافتراءات متبادلة ، وكأنهم على أديان متنافرة ، ومذاهب متناقضة ...

بل ربما كان بينهم أشد مما هو بينهم وبين أعدائهم ، بل ربما سعى بعضهم إلى أعداء الله للانتقام من إخوانهم ، أو السعي بهم عند السلطان ! ولربما تعاون الحزب مع النصارى والعلمانيين ، ولا يتعاون مع أهل التوحيد ، بل ربما تعاون معهم على أهل ملته كما حصل في الأندلس ، ويحصل في كثير من البلدان

وإذا أردت عين اليقين :

فتأمل سورة الحُجُرات ، والتي هي بحق سورة الأخلاق - ثم حقق مناطها على واقعنا ، ماذا ترى ؟!؟

حقق قوله تعالى :

﴿ **إنْ جاءَكم فاسق بنبأ فتَبيَّنوا ...** ﴾ [الحجرات:٦] تجدها : إنْ جاءكم فاسق بنبأ فاتهموا !!

﴿ **إنما المؤمنون أخوة ...** ﴾ [الحجرات: ١] تجدها : إنَّما المؤمنون أعداء

﴿ **وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ...** ﴾ [الحجرات:١٣] تجدها : وجعلناكم شعوباً وقبائل لتنافروا وتتفرقوا !!

وقوله تعالى : ﴿ **أذلّةٍ على المؤمنين ...** ﴾ [المائدة:٥٤] تجدها : أعزة على المؤمنين !!

﴿ **إنَّ أكرمكم عند الله أتقاكم ...** ﴾ [الحجرات:١٣] تجدها : إنَّ أكرمكم أغناكم ... أعرقكم نسباً ... صاحب المنصب ... !!

﴿ **رحماء بينهم ...** ﴾ [الفتح:٢٩] تجدها : قساة جفاة بعضهم على بعض

﴿ **إنَّ هذه أمتكم أُمَّة واحدة ...** ﴾ [الأنبياء:٩٢] تجدها : وإنَّ هذه أمتكم أحزاباً وشِيَعاً !! ... إلّا من رحم اللّه

وأما أقواله ﷺ ؛ فلسنا أحسن حالاً معها في واقع سواد المسلمين من الآيات ، فقد أصبحت عند المسلمين مهجورة ، إن لم تكن نسياً منسياً ، :

أما قوله ﷺ : « المؤمنون هينون لينون ... » [1] فأصبح : المؤمنون قساة معسِّرون

وأما قوله ﷺ : « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ... » [2] فأصبح : المسلم عدو المسلم ، يظلمه ويُسلمه !!

أما قوله ﷺ : « ولا يُسلمه ولا يحقره ... » [2] فأصبح : ويحقره ويتهمه ، ويهينه ويذله !!

أما قوله ﷺ : « ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ... » [2] فأصبح : تحاسدوا وتباغضوا وتقاطعوا !!

أما قوله ﷺ : « ولا تجسَّسوا وكونوا عباد اللَّه إخواناً ... » [2] فأصبح : وتجسَّسوا بعضكم على بعض ، واستعينوا بالسلطان على أنفسكم ، وكونوا عُبّاداً للحزبيات ، أعداء للأخوة !!

أليست هذه هي حقيقة حال المسلمين ، أليس هذا هو واقعهم المؤلم !!

أليست أخلاق معظمنا هي أخلاق أهل النار : الغلظة ، الفظاظة ، الاستكبار ،

ولقد وقفت على البحرين من أطراف الأرض شرقاً وغرباً ، فما رأيت أتعس من المسلمين حالاً ، ولا أسوأ منهم بعضهم على بعض مقالاً وفعالاً ، إلّا من سلَّمهم اللَّه من تيك البلايا !

---

(١) رواه القُضاعي في « مسند الشهاب » (١٣٩) . وصححه شيخنا في « الصحيحة » (١٣٩)

(١) رواه البخاري (٥١٤٣) ، ومسلم (٢٥٦٣) بألفاظٍ

ومع ذلك كله ؛ يصر إخواننا على إخفاء هذه الحقائق ، وطمس هذا الواقع ، وعدم ذكر أمراضنا ومعالجتها ، والتكتُّم عليها ، ظنّاً منهم أنَّ هذا هو العلاج الناجع !

إنَّ مثلهم كمثل رجل أصيب ابنه بداء عُضال فخشي شماتة الناس ، فسكت وكتم مرض ابنه حتى أرداه !!

إنَّ الإصرار على التكتم على أمراضنا ، وعدم الالتفات إليها في العملية التربوية ، ولا الاهتمام بها في الحركة التغييرية ، لا يشفي مريضاً بل يزيده وهناً

إنَّما يعني هذا : ترك المرض يتفشى ... حتى تضعف هذه الأمة - وما هي واللَّه بهالكةٍ -

ثمَّ .. إذا تُرك المسلمون على أمراضهم ، فكيف ينصرهم اللَّه ... ؟ وأنَّى يمكّنون ... ؟ وهم بعضهم لبعض كائدون ، وعن خُلُق نبيهم معرضون ، وعن المنهاج ناكبون ... فإنا للَّه وإنا إليه راجعون

دواؤه :

« لا شك أن ما وصفتَ هو عين الحقيقة ، وأنه أمر مسلم به ، لا يراجع فيه عاقل ، ولا يجادل فيه مخلص ، لكن ما ذكرتَ هو الداء ، فما هو الدواء ؟ »

إن كثيراً من الأدوية تُعرف بمعرفة الداء ، وهذا الداء من هذا القبيل

فإذا عرفت أن مرضك من هذا الطعام أو من ذاك الشراب ، فيكفي لشفائك اجتنابه ، وكذلك يكفي للشفاء من داء سوء الأخلاق اجتناب الأخلاق الرذيلة .

والتمسك بما وعظ به الرسول ﷺ أصحابه ، وبما نصح به أمته

لكن كيف ... ؟؟

يجبُ أن يدرك الجميع أنَّ الإسلام ليس علماً مجرداً ... ولا وعظاً مؤثراً ... ولا خطبةً تلقى ... أو مخطوطةً تحقق ... ولا كتاباً يؤلف ... أو حديثاً يُخرَّج ... ولا موقفاً سياسياً يسجل ... ولا جهاداً يعلن ...

إنَّ الإسلام ليس هذا فحسب ، بل هو - مع هذا وذاك - ممارسة واقعية ، وتربية عملية حقيقية

إنَّ أخطر ما نعانيه ، هو انفصال الدعاة عن مجتمعاتهم ، والعلماء عن طلابهم .. إننا نريد : أن لا يغادر الخطيبُ المنبرَ إلى بيته ، والمدرسُ الكرسيَّ إلى مكتبه ، والواعظُ اللاقطَ [1] إلى عمله ، تاركاً الناس ... بلا توجيه عملي ، ودون تربية تمارس ...

ماذا نفقد :

وبكل صراحة : إننا نفقد المربي الواعي ، المربي المُجرّب ، المربي المخالط

ولذلك كان من أعظم صفات رسول اللّه ﷺ ؛ ممارسته التربية العملية الواقعية ، التي هي أشمل من مُجرَّد العلم ، والوعظ ، والعبادة الفردية

فضلاً عما تحلى به هذا المربي ﷺ من صدق ، وصبر ، وخُلُق .. ولا أجمل مما وصفته عائشة رضي اللّه عنها حين سئلت عن خلقه ؟ قالت :

« كان خُلُقه القرآن » [2]

---

(١) اللاقط : الذي يلتقط الصوت ويرسله ... وهو ما يسمى (بالمكرفون)

(٢) مسلم (١/٥١٢ و ٥١٣ و ٥١) وغيره .

ولذلك خرّج رسول اللّه ﷺ طلاباً لا مثيل لهم في تاريخ البشرية ... فكانوا - كأنّهم - مصاحف تمشي على الأرض ، فأين المربي ؟!

إنَّ إلقاء الدروس العلمية المجردة ، مع إهمال التوجيه والمتابعة ، لا يربي جيلاً ، ولا ينشىء مجتمعاً

وإن تأليف الكتب وبثها في أبناء الصحوة ، وإلقاء الخطب الرنانة ، والمواعظ المؤثرة ... لا يبني أمة ، ولا يقيم دولة

لقد آن الأوان للعلماء والخطباء والمدرسين والدعاة ، أن ينزلوا من بروجهم العاجية، ويشمّروا عن سواعدهم الفتيَّة ، لممارسة التربية العملية ، مُتَّصفين بالصدق ، متحلّين بالصبر ، مُتخلّقين بالخلق الحسن ، وعندئذ نكون قد حققنا سبباً عظيماً من أسباب التمكين في الأرض

إن مسلماً صادقاً في سعيه للتمكين ، لا يمكنه أن يغادر آيات اللّه عزَّ وجل في العفو والصفح إلّا أن يمكّنها من قلبه ، ويسعى إلى تطبيقها بأعماله

وإن مؤمناً مخلصاً لا يسعه أن يمر بأحاديث النَّبي ﷺ في حسن الخلق إلّا وأن يُسكنها صدره ، ويُخضع لها جوارحه

من صور هذا المرض :

ولنا أن نضرب مثلاً مما فقده بعض المسلمون مِن خُلُقِهم مع ذكر علاجه ؛ ألا وهو : **فقدان الرفق والكلمة الطيبة :**

فتراهم غلاظاً أفظاظاً ، شداداً على أنفسهم ... يتراشقون الألفاظ القاسية ويتبادلون الأساليب الجافة ... ملبّساً الشيطان عليهم ... بدعوى التخطئة

ودعوى الضلال ، ودعوى الابتداع ، كأنَّهم لم يسمعوا قوله تعالى : ﴿ **فقولا له قولاً ليناً لعلّه يتذكَّر أو يخشى** ﴾ [طه:٤٤]

وكأنَّ رسول اللَّه ﷺ لم يقل لعائشة - عندما قالت لليهود : بل عليكم السام واللعنة - :

« إنَّ الله يحب الرفق في الأمر كله » وفي رواية : « يا عائشة لا تكوني فاحشة » وفي ثالثة « صه يا عائشة فإن الله لا يحب الفحش والتفحش » [1]

وإذا كانت الآية قد نزلت في حق فرعون أكفر خلق اللَّه ، واستحق بها الكلمة اللينة ... وإذا كان الحديث ورد بحق اليهود ، أخبث خلق اللَّه ، واستحقوا به الرفق ... أفلا يستحق المسلمون من أهل البدع والانحراف هذا اللِّين - فضلاً عن إخوة يسيرون معنا على الطريق - أخطؤوا أو ضلُّوا ، ابتدعوا أو انحرفوا ؟!

واعلم أنَّه لا يلزمُ مِن حسن الخلق ، ولين الكلام ، ورفق الدعوة ، أن يُسكت عن البدعة ، وأن يداهن على المعصية ، وأن يساير الانحراف المنهجي

وكذلك ، لا يلزم مِن إنكار المنكر ، ومحاربة البدعة ، أن ترتفع الأصوات ، وتسوء الأخلاق ، وتعبس الوجوه ، ويدعى إلى اللَّه بغير الحكمة والموعظة الحسنة ...

إنَّها قضية اختلاط الأوراق التي سنتكلم عنها في الأجزاء القادمة من هذا « السبيل » إن شاء اللَّه تعالى

---

(١) مسلم (١٧٠٦/٤) وغيره

باقة عطرة مهجورة :

وأخيراً ؛ إليك باقة عطرة ، من آيات وأحاديث ليست مجهولة ، ولكنها مهجورة عند كثير من الناس ، نافعة في تحسين الأخلاق ... لا نجهلها ... ولكننا نفتقد التكيُّف معها ، وممارسة مدلولها في ساحة الواقع العملية :

قال تعالى :

﴿ **فمن عفا وأصلحَ فأجره على الله** ﴾ [الشورى:٤٠]

﴿ **والكاظمينَ الغيظَ والعافينَ عن الناس والله يحبُّ المحسنين** ﴾ [آل عمران:١٣٤]

﴿ **خُذ العَفوَ وأمر بالعرف وأعرِض عن الجاهلين** ﴾ [الأعراف:١٩٩]

﴿ **إنما المؤمنون إخوة** ﴾ [الحجرات:١٠]

وقال ﷺ :

« لا تحقرنَّ من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق » (١)

« ما نقصت صدقةٌ من مال ، وما زاد اللَّهُ عبداً بعفو إلّا عزّاً ، وما تواضع أحد للَّه إلّا رفعه اللَّه » (٢)

« ألا أُخبركم بأهل النار ؟! كل عتلٍّ جوّاظٍ مستكبر » (٣)

---

(١) مسلم (٤/٢٠٢٦)

(٢) مسلم (٤/١٠٠٢)

(٣) البخاري (٨/٥٠٧) ، ومسلم (٤/٢١٩٠) ، والعتل هو : الفظ الغليظ ، والجواظ : المنوع المختال .

« إنَّ المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم » [1]

وأخيراً : سئل رسول اللَّه عن أكثر ما يدخل الناس الجنة ؟ فقال :

« تقوى اللَّه وحسن الخلق » [2]

وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار ؟ فقال :

« الفم والفرج » [3]

وبلغ شأن حسن الخلق مبلغاً جعل صاحبه من أفضل المؤمنين عند الله قال عليه الصلاة والسلام :

« أفضل المؤمنين : أحسنهم خلقاً »[4]

واللَّهَ أسأل أن يوفقنا للعمل بكتابه وبسنة نبيه ﷺ ، وأن يلهمنا السداد والرفق وحسن الخلق ، إنَّه أهل ذلك والقادر عليه

□ □ □ □ □

---

(١) أبو داود (٤٧٩٨) ، وصححه شيخنا في « صحيح الجامع » (١٩٣٢)

(٢) الترمذي (٣٦٣/٤) وغيره ، وقال الترمذي : صحيح غريب ، وصححه شيخنا في « الصحيحة » (رقم ٩٧٧)

(٣) قطعةٌ من الحديث السابق

(٤) رواه ابن ماجة (١٤٢٣/٢) ، والحاكم (٦٢٦/٣) ، والطبراني في الكبير (١٠٥/١٧) ، والبيهقي في الزهد (رقم ٤٥٦) وصححه شيخنا في صحيح الجامع

المرض الرابع :

مرض القول بلا عمل ، والعمل بغير علم

هذان الداءان ، داءان متوازيان ، ، هما من الأدواء التي أصيبت بهما أمتنا المنكوبة

ولا يقلُّ ضررهما الخطير عن تلك الأمراض الفتاكة التي لزمت جسد الأمة ، وأوهت قواها

أما الدَّاءُ الأول : **داء القول بلا عمل :**

فهو موجب لسخط اللّه تعالى ، واسِمٌ صاحبه بالنفاق ، مُضيع للأوقات ، مهدر للطاقات ، ولهذا استحق أصحابه كراهية اللّه وغضبه :

﴿ يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون كَبُرَ مَقتاً عندَ الله أن تقولوا ما لا تفعلون ﴾ [الصف:٣]

وقال ﷺ :

« لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل ... **عن علمه : ما فَعَلَ فيه ..** » الحديث [١]

(١) الترمذي رقم (٢٤١٩) ، وقال : حسن صحيح ، وأورده شيخنا في الصحيحة (رقم ٩٤٦).

وقال ﷺ :

« مثل العالم الذي يُعَلِّم الناس الخير وينسى نفسه : كمثل السراج ؛ يضيء للناس ، ويحرق نفسه » [1]

ولذلك كانت أسوأ صفة من صفات المنافقين : أنهم يقولون ما لا يفعلون ؛ كما قال ﷺ « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان » [2]

وقال ﷺ :

« أخوف ما أخاف على أمتي كل منافق عليم اللسان » [3]

وتكمن خطورة هذا المرض في شعور صاحبه ببراءة ذمّته ، وبأداء واجبه على أكمل وجه ؛ وذلك بمجرد الكلام عن الموضوع دون العمل ، وهو شعور نفسي خفي ، يُقذَف في نفوس أصحاب هذا المرض ، كما يُقذف في نفوسهم الكسل

▫ من مظاهر هذا الداء :

○ لوم الآخرين :

لقد اعتاد المسلمون الإكثارَ من لوم الآخرين ، وأنهم هم وراء تقصيرنا ، وذلّنا ، وليس علينا نحن من لوم ، فقد تكلمنا .. وتكلمنا ، وحسبنا الكلام ! وهذا عرض من أَبشع أَعراض هذا المرض

(١) أخرجه الطبراني في « الكبير » (١٦٨١) ، وله شاهد آخر عنده برقم (١٦٨٥) ، وصححه شيخنا في « اقتضاء العلم العمل » (٤٩) .

(٢) البخاري (رقم ٣٣ و ٢٦٨٢ و ٢٧٤٩ و ٦٠٩٥) ، ومسلم (٧٨/١)

(٣) سبق تخريجه

○ ازدواج الشخصية :

إذا سمعت خطيباً على المنبر ، وقع في نفسك شك من أنَّ أبا بكر أو عمر - رضي اللَّه عنهما - قد رجع أحدهما ! وهو الذي يخطب الآن !! حتى إذا ما نزل ، فإذا هو رجل آخر يحتاج إلى دعاء للهداية ، وهذا ما يسميه علماء النفس : ازدواج الشخصية ، الذي كثر في هذه الأمة ، وقلَّما نجا منه أحد ، إلّا من رحم اللَّه !

فقد ضجَّت منابرنا من كثرة ما تكلم عليها عن الغيبة والنميمة ، في الوقت الذي نرى فيه مجتمعاتنا وقد أُتخمت منهما ، وأفسدتا على المسلمين معاشهم ومقيلهم !

وفي الوقت الذي نسمع فيه أصوات دعاتنا وقد بُحّت في دعوتهم لإحياء الأخوّة ، نراهم هم أنفسهم من أبعد الناس عنها إلّا من رحم اللَّه !

وفي الوقت الذي نتكلم فيه عن التعاون ، وندعو فيه إلى وحدة الصف ، نرى الحزبية المقيتة ، وقد غزت منابرنا ومجلاتنا ، وتوغلت في مساجدنا وحتى بيوتنا، وتفشت في كتبنا ومجالسنا ، وطغت على واقعنا !

والأخوة والحزبية لا يلتقيان ، حتى تلتقي النار والماء ، والأرض والسماء ؛ فما أكثر كلام المسلمين ، وما أقلَّ أفعالهم ؟!

وما أسرع المسلمين في تخطيط نظري ، وما أبعدهم عن فعل عملي !

وما أعلى أصواتَهم في خطبة ... وما أصم أذانهم عن سماع نصح !

وما أكثر مؤتمراتهم ، ومجالسهم ، وما أسوأ مخاطباتهم ومناقشاتهم !

وقلَّما يخرج المسلمون من لقاء إلّا وخلافاتُهم قد ازدادت ، وكأنَّ عدم اجتماعهم خيرٌ لهم !

وأما ما قرَّروه من عمل فلا شأن لهم به ، وإنما شأنهم الكلام عن الكفار ، فهم - أي الكفار - المسؤولون عن إحياء الأخوّة بيننا ، وهم المسؤولون عن إصلاح ذأت بيننا ، وهم المسؤولون عن تقصيرنا ونكباتنا !!

وإذا أردت التثبت : فاطلب من خطيب خطبةً في موضوع ما ، وليكن موضوعها التعاون والأخوة فماذا يكون ... ؟! ثم اطلب منه عملاً تقتضيه الخطبة ... فماذا يكون ؟!

الجواب ؛ عند أولي الألباب !

الدَّاء الثَّاني : **العمل بلا علم :**

وإذا كان اللوم الشديد ، والمقت الكبير على من علم ولم يعمل .. فإنَّه لا ينجو - كذلك - مَن عَمِلَ بلا علم ، بل هي بلية لا تقلُّ عن أختها في السوء والفساد ، وسوء المنقلب .

بل إنَّ الإيمان والتوحيد لا يكونان إلّا بعد العلم

وما ضلَّ الضالون ، ولا انحرف المنحرفون ، إلّا بالعمل بلا علم ولا سلطان أتاهم من اللَّه

ولهذا بوَّب الإمام البخاري في « صحيحه » (١/١٥٩) : « باب العلم قبل القول والعمل »

ولقد نعى اللَّه على المشركين وأهل الكتاب أن عملوا وقالوا بغير علم ، قال تعالى : ﴿ **ويَعبدونَ من دون الله ما لَم ينزل به سلطاناً وما ليسَ لهم به علمٌ** ﴾ [الحج:٧١]

وقال سبحانه : ﴿ ولا تَقْفُ ما ليسَ لكَ بهِ علمٌ ﴾ [الإسراء:٣٦]

وقال سبحانه : ﴿ ومِنَ النَّاس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى وَلا كتابٍ مُنيرٍ ﴾ [الحج:٨]

ودعا رسول اللَّه ﷺ على من أفتى بغير علم : فقال : « قتلوه قتلهم اللَّه » (١)

ومثل الذي يعمل بغير علم : كمثل الذي يحتطب ليلاً ، فلربما رفع حطباً فيه ثعبانٌ يلدغه !

وقال سَلَفُنا :

« مثل الذي يعمل بلا علم مثل النصارى ، ومثل الذين يعلمون ولا يعملون مثل اليهود »

وقالوا :

« كيف تتقي وأنت لا تدري ما تتقي »

وهذه هي بليَّة هذه الأمة - إلّا من رحم اللَّه - :

إما علم بلا عمل ، وإما عمل بلا علم

فوا أسفاه على مجالس ذهب وقتها هدراً !!!

ولو أن المسلمين صرفوا أوقات مجالسهم ومناقشاتهم في العمل والدعوة - كما كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ لتغيّر وجه الأرض

(١) أحمد (١/٣٣٠) ، وأبو داود (٣٣٤) ، وصححه شيخنا في « صحيح الجامع » (٤٣٦٣).

ويا نحس عباداتٍ [1] يقوم بها كثير من المسلمين ليس لها أصل !!

ويا خُسرَ طرق سلكها المسلمون وهم يظنُّون صوابها !!

ويا ضيعة أوقات هُدرت في القيل والقال !

ويا حسرة على قرارات واقتراحات ذهبت أدراج الرياح !!

ويا مُصيبةَ كتب أُلِّفت من غير عالم وبلا علم !!

وإن كنت في شك مما نقول فقلّب النظر في أحوالنا ، ثم ارْجِع البصر كرّات ، ينقلب بصر المخلص إليه وهو حسير :

حسيرٌ على ارتفاع مآذننا ، وقصر همتنا ...

مندهشٌ من طول ألسنتنا ، وقلَّة أعمالنا ...

بئيس على كثرة كتبنا ، وقلَّة علمائنا ...

متعجِّب من جمال منابرنا ، وبشاعة أخلاقنا ...

حزينٌ على عظم مساجدنا ، وضعف تعاوننا ...

متأسف على كثرة خطبائنا ، وقلَّة فقهائنا ومربّينا ...

فما أحب الكلام إلينا ! وما أكره العمل !

وما أكثر لوم بعضنا لبعض ! وما أبغض الاعتراف بالخطأ !

وكأن المسلمين اتفقوا - والحمد للّه على كل حال - على أن تكون **أسسُ مناقشاتهم** :

- سوءَ الخلق ، ورفعَ الأصوات ، ومقاطعةَ الحديث !

- الاختلاف في كل شيء !

---

(١) هذا التعبير سائغ . لقوله تعالى : ﴿ في أيَّام نحسات ﴾ وهذا شيء ؛ والتشاؤم المحرم شيء آخر

- إعجاب كل ذي رأي برأيه ، والاستخفاف بآراء الآخرين وتسفيهها !

وأسسُ لقاءاتهم :

- الاتهامات وسوء الظن المتبادل !
- كثرة الكلام والقرارات ، وقلَّة العمل !
- القيل والقال ، وإضاعة الأوقات !

وتعاهدوا على :

- عدم الإنصاف ، وعلى السماع من طرف واحد !
- وحسد العاملين ، وتثبيط المُخلصين !
- وتبرئة ذمتهم من كل فشلٍ وتقصير ، وتحميله غيرهم من أعداء الدين !

وستبقى حالتنا هذه - واللَّه - تُبكي التقي ، وتُحزن الصادق ، وتحرقُ كبدَ المخلص ، حتى نعود إلى ديننا بإخلاص ، وإلى سيرة سلفنا بصدقٍ ، فنتقي اللَّه كما اتقوا ، ونعمل كما عملوا ، وعندئذٍ نرفع رؤوسنا كما رفعوا ، وننال مجد الدنيا كما نالوا ، ونفوز بالجنان كما فازوا :

﴿ إنَّ المُتَّقين في جنَّات ونَهَر في مَقعَدِ صِدقٍ عندَ مليكٍ مقتَدر ﴾

[القمر:٥٥]

الداء الخامس :

فقدان الإخلاص أو ضعفه

الإخلاصُ ركنٌ ركينٌ من أركان كل عمل ... سواء ، كان هذا العمل دنيوياً أم أخروياً :

﴿ **وما أُمروا إلّا ليعبدوا اللهَ مخلصينَ لهُ الدِّين حنفاء** ﴾ [البينة:٥]

وأما ما ورد في السنة في شأن الاخلاص فكثيرٌ جداً ، يجمع ذلك كله قوله ﷺ :

« إنما الأعمال بالنيات .. »[١]

أي : لا يقبل اللَّه عملاً أبدا إلا إذا جُرِّدَت النية له .. وأخلص فيه العبدُ إلى ربِّهِ

وقال بعض السلف :

« يانفس كم تبكين .. اخْلِصي تَخْلُصي »

واعلم أن الكفَّار ما أفلحوا في دنياهم إلَّا بإخلاصهم لها في أعمالهم ، وصدقهم فيها

---

(١) أخرجه البخاري وغيره.

وما فشل المسلمون إلّا بفقدان الإخلاص لله ، الذي لايتم عمل إلّا به ، ولا ينجو امرؤٌ إلّا به ، وكل شيء بإذن ربِّك

وما علمتُ أمراً يجب أن يكون شرطاً في كل عمل إلّا الإخلاص والاتّباع ؛ جلَّ هذا العملُ أو دقَّ ، فردياً كان أو جماعياً

وَمَثَلُ دخول الإخلاص في كل عمل كمثل الدم في الجسم ، لا يترك مفصلاً ولا عرقاً إلّا ويتخلّله ، فإذا حُرمه المفصل أو العرق مات وانقطع .

وما أفسَدَ أعمالنا وتصدُّقَنا وجهادنا ودعوتنا إلّا فقدانه ، وما يصلحها إلّا الإخلاص مع الاتّباع .

ولو كنّا مُخلصين للّه عزَّ وجلَّ حقَّ الإخلاص ، لما وصلت حال المسلمين إلى ما وصلت إليه من الذُّلِّ والهوان والفشل .

ولو كنّا مُخلصين للّه عزَّ وجلَّ حقَّ الإخلاص ، لما سفك بعضنا دماء بعض ، ولما فشل جهادنا ، وظهر علينا عدوّنا

ولو كنّا مُخلصين للّه عزَّ وجلَّ حقَّ الإخلاص ، لما ظهر هذا الشقاق ، ولا تفاقم هذا الخلاف ، الذي استشرى في جسد هذه الأمة ، كالكَلَب [1] لا يترك مفصلاً ولا عرقاً إلّا دخله .

◘ ما وراء فقدان الإخلاص

في المؤسسات الدنيوية - وبخاصة التي بيد الكفار - تُنْشأ المشاريع ، وتُقام الصروح ، ويُعزل المديرون ، وتُبدَّل الوظائف ، ويُطرد الناس ، فلا تكاد تسمع

(١) الكَلَب : مرض يصاب به من عضه كلْبٌ كَلِبٌ ، أي : مسعور يأكل لحوم الناس

للعاملين فيها همساً ، ولا تجد فيهم قيلاً وقالاً .

وأما في المؤسسات الإسلامية ...

فيا للثبور ، ويا لعزائم الأمور ... إن عزلت مديراً ، أو غيرت كاتباً .. !!

ويا للعار ، ويا للشنار إن أخطأت ، أو عاتبت ... نسأل اللَّه السلامة !!

عُزل مدير مدرسة إسلامية ، فقامت الدنيا ، واهتزَّت البلد ... وقامت المظاهرات في الشوارع ... و ... و ... وقالوا : عُزل بناءً على أمرٍ من الحكومة الفلانية ... وقالوا : عُزل لأنَّه سبَّ الطاغوت الفُلاني ... وقالوا : ... !

ونسي المسلمون جواز العزل في الإسلام ودون سبب

ومع هذا لما حصل تفتيش لمستودع الألحفة بالمدرسة التي عزل عنها ، وجدت الجرذان قد أُتخمَت منها ، وما سلم من الجرذان تَعفَّنَ من الرطوبة والماء ... في الوقت الذي يشكو فيه الطلاب البرد والفاقة

وأما المستودعات الأخر : فحدّث ولا حرج ، فالدَّقيق فوق السمن ، والسمن فوق مصابيح الكهرباء ... و ... و ...

وأما نظام المدرسة فكان تامّاً كاملاً ، لكن في رأس المدير .... لا على الورق ! حتى إذا ما عزل المدير عزل النظام معه ، وذلك رغبةً في إفشال غيره في حال عزله ...

هذا هو مقدار الإخلاص عند المسلمين الذين يزعمون الجهاد ، ومحاربة الطواغيت .. **ووالله إن لم نحارب طواغيت أنفسنا ، فلن ينصرنا اللَّه على طواغيت أرضنا**

﴿ إن الحكم إلا لله ﴾ في نفسك وفي أرضك وفي نفسك قبل غيرك ، وليس في أرضك على غيرك دون نفسك . فتدبّر .

وليست هذه حادثةً فرديةً ... بل هي صورةٌ عما يحصل في المؤسسات الإسلامية ..

ولو لم يكن من وراء فقدان الإخلاص إلّا تلك النكبات التي حلَّت بديار المسلمين ... فحسب ! إذن لهانت مصائب الدنيا ، وسهل خطبها ، أمام حساب دقيق ، وموقف رهيب ، بين يدي جبار السماوات والأرض ، يبطل كل عمل فَقدَ الإخلاص :

﴿ **وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً** ﴾ [الفرقان:٢٣]

فأيُّ حياة بعد هذه الحياة ! وأيُّ تعاسة بعد هذه التعاسة !

ثمرات الإخلاص :

واعلم أنَّ للإخلاص ثمرات فرديّة وجماعيّة ، فمن ثمرات الإخلاصِ الفرديةِ : إحياء اللَّه للقلب .. فتكون الذلة لإخوانه ، ولين الجانب لأصحابه ، والرفق بهم ، والبعد عن حظوظ النفس ، والترفع عن ذلّ الدنيا ، والزهدُ فيها.

وعندئذٍ تظهر بين المسلمين ثمراتُ الإخلاص الجماعية : كالتعاطف ، والتراحم ، والتشاور ، والتعاون ، والتضحية ، وهي الأمور التي تبنى بها المجتمعات ، ويغاظ بها الأعداء ، قبل إغاظتهم بالخطب والسلاح

وعند بناء المجتمعات على هذه الأسس المتينة ، لا على المصالح الدنيوية ، عندئذ نقطف ثمرة من ثمرات الإخلاص .. ألا وهي النصر والتمكين

الإِخلاص والتمكين :

وليس قصدُنا ها هنا بحثَ موضوع الإخلاص - تعريفه ، أدلته ، أحكامه، علاماته - وإنما قصدنا التنبيه إلى أنَّ المجتمع الإسلامي لا يبنى إلّا على الإخلاص للَّه ، وأن يسعى المسلمون إلى التمكين ابتغاء مرضاة اللَّه ، ولو أصابهم ما أصابهم؛ تماماً كما رُبي المسلمون على الزهد في الدنيا في العهد الأول فحوصروا في الشِّعب ، وأصابهم الفقر ، وعضهم الجوع ، فلم يزدادوا إلّا إيماناً وتسليماً ، وحاول العدو شراء بعضهم[1] - وهم في أضيق الضيق - فأبوا ذلك كلَّه ، ولم يزدهم إلَّا تمسّكاً بدينهم ، وطاعة لنبيهم .. وذلك بسبب إخلاصهم وصدقهم

ومنه تدرك خطأ كثير من الدعاة الذين يسعون إلى التَّمكين الأرضي قبل التمكين القلبي ! وهم يُرَبُّون الناس على أنَّ الحاكم رفع الأسعار ، ونهب الأموال ، وخرّب الاقتصاد ، وأنَّهم - أي دعاة التمكين الإسلامي - سوف يرخصون الأسعار ، ويبنون الاقتصاد ... فأصابهم سيئات ما عملوا ، وسقط خيالهم ، بسبب إعراضهم عن هدي النَّبي ﷺ في التربية ، وسبيله في التمكين

تعريف الإِخلاص :

والإخلاص الذي فقده كثير من المسلمين ، وأعرض عن الدعوة إليه كثير من الدعاة ، أدق من أن يوصف ، وأجلُّ من أن يكتب في صفحة أو صفحتين

---

(١) راجع سيرة الصحابي الجليل كعب بن مالك رضي الله عنه عندما حاول ملك غسان شراءه لما قاطعه الرسول ﷺ وأصحابه في قصة المتخلفين المشهورة ، وقد ثبّت الله الثلاثة وخذل الله الباطل ، وذلك فضلا منه لصدقهم في توبتهم ، وإخلاصهم في إيمانهم

إنَّه حياة القلب مع اللَّه وللَّه وفي اللَّه وعلى اللَّه وإلى اللَّه وباللَّه

فالمخلص : هو الذي لا يطلب حظّاً فانياً في عبادته ، ولا يلتفت إلى مصلحة دنيوية في عمله إلّا مصلحة الدار الآخرة

والإخلاص - كما قال العلماء - : كسر حظوظ النفس ، وقطع الطمع في الدنيا ، والتجرّد للآخرة ، حتى يغلب ذلك على القلب

o من علامات الاخلاص :

- الزهد في الدنيا فمن كان غارقاً فيها فليراجع نفسه

- التواضع ولين الجانب فمن كان فظاً مترفعاً على إخوانه ، متمادياً في خطئه ، يستحي أن يرجع عنه ، وبخاصة إن كان من طلبة العلم ، فليراجع دينه

- ترك حظّ النفس من الانتقام لها .. لا يترك إلا لله

- كَبح جماح النفس عن طلب المكافأة على المعروف ، وضدّه : كفُّ المعروف إذا أوذي فيه ، أو لم يكافأ عليه ، أي : من صنع معروفاً فلم يكافأ عليه ، فحمله ذلك على تركه ، فليراجع إخلاصه

- الإنصات للمخالف والخصم ، وتفهم قصده وكلامه ، وضدّه : صَمُّ الأذن عن كلام المخالف ، وإعداد الجواب قبل السماع

o من المُعِينات على الإخلاص :

- استشعار عظمة اللَّه وجلاله ، واستحضار القلب لصفات كماله ، والتفكّر في تدبيره وإحاطته بكل ومراقبته ، ﴿ **وكان الله على كل شيء رقيبا**﴾ رقيباً عليه بسمعه وبصره ، وعلمه الذي علم به كل الأشياء ، ظاهرها وباطنها ﴿ **هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم** ﴾ [الحديد - ٣]

- إدراك الأجر العظيم بتحقيقه ، وخسارة الأجر بفقدانه ، دون تحصيل منفعة تذكر ، ولا مصلحة تعلم ... فالرياء مفسد لا مُصلح ، وضارٌّ لا نافع

- غض الطرف عن غير اللَّه - سبحانه - ، وصرف تعلق القلب إلا به ، وذلك بالنظر إلى الناس أنهم مخلوقون ، فهم عاجزون ، وكأنهم أمواتٌ لا ينفعون ولا يضرون

« واعلم أنَّ الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لن ينفعوك إلّا بشيء قد كتبه اللَّه لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لن يضروك إلّا بشيء قد كتبه اللَّه عليك ، رُفعت الأقلام ، وجَفّت الصحف » [1]

---

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٢٥١٦) وقال : هذا حديث حسن صحيح

الداء السادس :

فقدان المناعة ضدّ الأهواء ...

إنَّ مِن الأمور التي تستوقف العاقل وتدعوه إلى التأمل ؛ أنَّ الصحابة رضوان الله عليهم ، لم يكونوا من أصحاب الأهواء أو معهم ؛ فما كان منهم أحد خارجياً ، ولا شيعياً ، ولا قدرياً

رغم ما وقع من بعضهم من الأخطاء والمعاصي ؛ أما الهوى ، والابتداع ، والتحريف ، فكانوا أبعدَ عنه من بُعد السماء عن الأرض ، وكان أحدهم إذا نزل بلداً ، كان كالمصباح في ظلمة الدُّجى ... بل كان أحدهم أمّة دون الناس ، يحيي به اللَّه الحق والسنة ، ويميت به الهوى والبدعة .. وقد وقفوا في وجه أصحاب الأهواء وقفة الواثق من نفسه ، الحاكم بضلال مُخالفِه

اسمع لابن عمر - إن شئتَ - حين أُخبر ببدعة القدر ، ماذا قال - وبكل ثقةٍ وثبات - : « أَخبِرْهم أني بريء منهم ، وأنهم برآء مني » [1]

ولو كان ابن عمر رضي اللَّه عنه بين أظهرنا ، وقال هذا ، لقيل له : « ومن أنت ... نحن البرآء منك ... » !!

---

(١) رواه مسلم (٣٧/١) وغيره

ومواقف الصحابة وكلماتهم - في هذا الباب - كثيرةٌ .. فكانوا إذا جاءهم أَهل الابتداع والفكر ، جعلوا أصابعهم في آذانهم حذر سماع أقوال أهل الفتنة ، وشبه أصحاب الأهواء .. [1]

وهكذا كانوا رضوان اللَّه عنهم في كل موقف عرفوا فيه الحق ، لا تحيد بهم عاطفة ، ولا تؤثر فِيهم زخرفةُ مزخرفٍ ، ولا صراخُ صارخٍ

وأما أصحاب زماننا ... وما أدراك ما أصحاب زماننا ! فكلما فكّر مفكّر ، أو صرخ صارخ ، التفّوا حوله مجتمعين ، ولفلسفته مستمعين .. مهللين ومكبرين ! وكلما نعق ناعق ، أو هتف هاتف ، هرعوا إليه مستبشرين ، وببدعته عاملين ! وهذه هي العاطفة التي نلهث نحن وراءها ، وكانوا لا يقيمون لها وزنا

وما أنفس ما قاله إمام دار الهجرة مالك رحمه اللَّه :

« أوكلَّما جاءنا رجل أجدل من رجل ، تركنا ما جاء به نبينا عن جبريل عن اللَّه لجدل هذا » [2]

مَثَل العاطفيين :

وما أشبَه أهلَ زماننا بقوم ركبوا سفينة فتحطمت بهم ، فكانوا كلما رأوا طافياً تعلقوا به ... فلربما تعلقوا بما يُغرقهم !

فترى داعيةً .. لا يُعرف مشربه ، ولا يُحمد علمه ... قد سَطَعَ نجمه لشتم حاكم ، أو دعوته لإسقاط ظالم ، وربما كان من المدسوسين ... وترى العاطفيين

---

(١) سيأتي تفصيل ذلك في الجزء الثالث إن شاء الله تعالى

(٢) رواه ابنُ بطَّة في « الإبانة » (٥٨٢)، وانظر « درء تعارض العقل والنقل » (١-١٩١) وأجدل : أشد جدالاً ، وألحن حجة ، وأمهر كلاماً.

وراءه مسرعين ، ولحماستِه متبعين[1] ...

وربما ترى خطيباً مفوَّهاً قد جمعهم على عاطفة ، ثم لما غرَّته كثرتهم ثار بهم ... فلما سُجن أو قُتل .. تفرقوا بعصا واحدة !!

إنَّها التربية الخاطئة .. التربية على العاطفة وحب الرجال

وأما صاحب الفضل والعلم : فإنْ علَّمهم سنين ، وأعانهم سنين ، وخدمهم سنين ، ثم رأوا منه شيئاً ، قالوا : ما رأينا منك خيراً قطّ !!

وأعجب من هذا : أنَّهم يتبعون داعية ؛ لموقف سياسي منه ... أو لتصريح ناري صدر منه ... ثم إذا تراجع عنه ... فروا عنه ، فرارهم من قَسوَرة !!

فأين - إذن - الحق ... ؟ وأين - إذن - التأصيل ؟ وهو هو ... في عقيدته ، وإخلاصه وعلمه ، غير أنَّه بدا له أمر ، أو عدل عن أمر

عدوى العاطفة :

وكنا نعتقد ونتمنى أن تبقى الأرض التي أشرق منها نور التوحيد ، بمنأى عن تلك العواطف الجياشة ، والزبد الخادع !

وما كنا نظن أن يصيبهم ما أصاب إخوانَهم في بلادهم المجاورة ، لكنّ

(١) قلت : معظم ما كُتب في هذا الكتاب كان قبل معظم الأَحداث ، ومنها البوسنة والهرسك ، واقتتال المسلمين الأَفغان بعضهم مع بعض ، وغير ذلك من الأَحداث التي جاءت شاهد صدق على صحَّة ما ندعو إليه ، وبهذه المناسبة .. اكتشف جاسوس لبعض الاستخبارات العالميَّة حول بعض الزعماء الذين يدعون إلى الجهاد ، وكان هذا الجاسوس بطانة الزَّعيم التي تحثّه واتباعه على الصدام مع الحكَّام ، لتوريطهم ولاستئصال شأْفتهم باسم الجهاد .. فمن الذي لا يفقه الواقع ؟ ومن الذي يسقط في حبائل الأَعداء ؟ ...

عدوى العاطفة ، أشدُّ وأسرع من عدوى الأمراض البدنية !!

﴿ فأما الزَّبَد فَيَذهَب جفاء وأمّا ما ينفعُ الناس فيمكث في الأرض ﴾ [الرعد:١٧]

وإن لم تكن تربية الناس على العاطفة ، وتحريكهم بالحماسة ، هي الزبد ... فليس ثمَّة زَبَدٌ أبداً!

وإن لم تكن تربية الناس على التوحيد والأخلاق ... وبناؤهم بالعلم والإخلاص ، ودعوتهم لتصحيح عقائدهم ولإصلاح عبادتهم ، هي التي تنفعُ النَّاس ... فلا وجود - واللَّه - لشيءٍ ينفع الناس !

نقطة البدء :

إنَّ دعاة يبنون أمة على عاطفة جياشة ، ويسعون إلى إقامة حكم اللَّه في رأس الهرم ، قبل إقامته في قاعدته - وذلك عن طريق القوة والسلاح - إنما هم يخادعون أنفسهم ، ويخادعون الناس ، ويبنون خيالاً على زبد

قال سيّد : « ليست المطالبة بإقامة النظام الإسلامي ، وتحكيم الشريعة الإسلامية ، هو نقطةَ البدء ، ولكن نقطة البدء نقل المجتمعات ذاتها ، حكاماً ومحكومين عن الطريق السالف إلى المفهومات الصحيحة ، وتكوين قاعدة » [1].

وإنَّ الذين يدعون إلى تصحيح عقائد الناس ، وإصلاح عباداتهم ، وإقامة حكم اللَّه في القلوب ، ثم في الأرض ، هم الذين ينفعون الناس ... وهم الذين يقتدون بهدي النَّبي ﷺ الذي ربى أصحابه على العقيدة والعبادة ، والإخلاص

---

(١) « لماذا أعدموني » (٤٣) وقوله: « عن الطريق السالف ، أي ماهم عليه من جهلهم بالدين

والأخلاق ؛ - لا على العواطفِ والأحداث - فأوجد اللَّه على يده جيلاً عجزت البشرية عن تربية أمثالهم .

« ولا بدّ إذن أن تبدأ الحركات الإسلامية من القاعدة ، وهي إحياء مدلول العقيدة في القلوب والعقول ، وتربية من يقبل هذه الدعوة تربية إسلامية صحيحة ، **وعدم إضاعة الوقت في الأحداث السياسية الجارية** » [1]

سرّ الثَّبات ، وسبب الهلع

لا يزال العاقل يتساءل عن سرّ ثبات أصحاب رسول اللَّه ﷺ ؛ في العقيدة والعبادات ، ،الجهاد ، والأخلاق ، وفي المنهاج ... ؟

وعن سرّ هذا الهلع الذي حلّ بهذه الأمة ... كلمة تموج بها ، وأخرى ترعبها .. !! وحادثة تثيرها ، وأخرى تخمدها !!

حتى صدق فيها قول المصطفى ﷺ :

« وإنَّه سيخرج من أمتي أقوام ، تجارى بهم تلك الأهواء ، كما يتجارى الكَلَب بصاحبه ، لا يبقى منه عِرق ، ولا مفصل ، إلّا دخله » [2]

فلما نعق ناعق الاشتراكية ، خرجوا نحوه مسرعين ... ولما صرخ صارخ الوطنية والقومية ، هبّوا إليه مستبشرين !

وهاهم اليوم كثير من المسلمين ... وراء العلمانية يلهثون ، وبأفكارها يتعلقون ، وهم يصلون ويزكون ، وبالإسلام يدّعون !!

---

(١) المرجع السابق

(٢) أبو داود (٤/٤٥٩٧) وغيره ، وصححه شيخنا في « صحيح الجامع » (٢٦٤١)

فما هو هذا السرّ الذي جعل أصحاب رسول اللّه ﷺ كالجبال الراسيات ، في وجه الأعاصير والهجمات ؟! وجعلنا كالغصن الضعيف في مهبّ الرياح ... ريح تأخذه ميمنة ، وريح تأخذه ميسرة ؟!

وجعل قلوبنا أوهى من بيوت العنكبوت ... وأفئدتنا هواء !!

إنَّ حقيقة هذا السِّرّ ترجع إلى أمور ثلاثة :

الأول : فهمهم العميق للإسلام وسوء فهمنا له :

إنَّ طول العهد بيننا وبين نبع الإسلام الأول الصافي ... والحملات العسكرية والفكرية التي وُجِّهت ضد الإسلام والمسلمين ... وما واكب ذلك من تقصير علماء الإسلام ودعاته ، ومُرَبِّيه ؛ في الدعوة والتربية والتضحية ... جعل كثيراً من المسلمين يفهمون الإسلام فهماً ناقصاً ، أو خاطئاً :

قال تعالى : ﴿ **فَخَلَف من بعدهم خَلْف أضاعوا الصلاة واتَّبعوا الشهوات فسوف يلقون غيّاً** ﴾ [مريم:٥٩]

وقال تعالى : ﴿ **ألم يَأن للذين آمنوا أن تخشعَ قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأَمَدُ فَقَسَتْ قلوبهم وكثيرٌ منهم فاسقون** ﴾ [الحديد:١٦]

فبسبب طول العهد ، وبُعد الأمر ، وإهمال الدعوة ، أصبح بعض المسلمين يفهمون الإسلام فهم النصارى لدينهم .. أنَّه دين عبادة وأخلاق ... ليس إلّا ، وَوُجِدَ آخرون يفهمونه أنَّه دين أفكار وكلام ، لا دين عبادة وأعمال ، فترى المفكر فيهم طليق اللسان ، قوي البيان في دفاعه عن الإسلام ، ورد شبه الخصوم ، وأما العمل فلا يكاد يقوم بالأركان !

مؤشر خطير :

قال الطالب الجامعي لمُدَرِّسِه في كلية الشريعة :

« ما لي أراك يا أستاذ حليق اللحية ، مسبل الثياب ، قد خلعت لباس الرسول ﷺ ، وارتديت لباس اليهود والنصارى ، ولبست خاتماً من ذهب ... وأنت تُدرِّس في كلية الشريعة ؟ »

فأجاب الأستاذ - وكان صادقاً - : « إن كان هذا هو الذي أخالف فيه الإسلام فقط .. فالأمر هيِّنٌ ... وما خفي عنك أعظم » !!

﴿ كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تَفعَلون ﴾ [الصف:٣]

لمن الحكم :

ومن هؤلاء الذين ساء فهمهم للإسلام :

قومٌ فسدت نياتهم .. وخلطوا أقوالهم ... وقدَّموا أهواءهم على كتاب ربهم وسنة نبيهم ، وعمل الخلفاء الراشدين ، وكافة علماء الدين من المتقدمين والمتأخرين ... وقالوا - وكأنهم أصحاب الوحي والتنزيل - : « إنَّ الإسلام دين عبادة ، لا دين حكم وسياسة » !!!

فحرَّفوا بذلك كتاب اللَّه ، ونسخوا آياته :

﴿ إنِ الحُكم إلّا لله ﴾ [يوسف:٤٠] .**﴿ أَلَا له الخَلق والأمر ﴾** [الأعراف:٥٤]

﴿ أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون ﴾ [المائدة:٥٠]

وهجروا سنة رسول اللَّه ﷺ ، بل استهزؤوا بها وردُّوها ، ونفوا - والعياذ باللَّه - أن يكون الحكم للَّه ولرسوله وللمؤمنين الصادقين من بعده .

قال عليه الصلاة والسلام :

« لتنقضن عرى الإسلام عروة عروة ، فكلّما انتقضت عروة تشبّث الناس بالتي تليها ، فأولهنَّ نقضاً الحكم ، وآخرهن الصلاة » [1]

ومع هذه النصوص الواضحات - وما كان عليه المسلمون الأوائل - تجدهم يصرون على ضلالهم ؛ طاعة لأسيادهم ، وخدمة لشهواتهم ، وهؤلاء لا شأن لنا بهم في عملية البناء والتربية ، ولكن لا بد من التنبُّه لخطرهم ، والتحذير من شرهم .

الأمر الثاني : قلوبنا وقلوبهم :

ومِن الأسرار - أسرار ثبوت الصحابة وضعفنا - ضعفُ الإيمان في قلوب عامة المسلمين ، وقلّة صدقهم ، وخفّة أحلامهم .. فلم يستشعروا عظمة اللَّه في قلوبهم ، ولا أيقنوا بِصفاته في أفئدتهم ، فانكبُّوا على الدنيا يلهثون ، أو وراء الشعارات الكاذبة يركضون ؛ طلباً لدنياهم ، وجرياً وراء مصالحهم ، لذلك لمّا نادى المنادون بأنظمة غير أنظمة الاسلام ، هبوا وراءهم يلهثون ... وهم يظنّون أنهم ما يزالون بالإسلام يتمسكون

---

(١) أحمد (٥/٢٥١) ، وابن حبان (٨/٢٥٣) ، والحاكم (٤/٩٢) ، وصححه ، وأورده شيخنا في « صحيح الجامع »

وذلك تصديقٌ لقول النَّبي ﷺ :

« ... ولكنكم غثاء كغثاء السيل » [1]

الأمر الثالث :

سوء تربية كثير من المسلمين ، وبخاصة المنتسبين إلى حقل الدَّعوة ، وقد سبقت الإشارة إلى بعض الأخطاء المرتكبة في العملية التربوية ، وبخاصة فقدان التأصيل ، وقد فُصل فيه القول مع الأخطاء التربوية الأخرى في العقبة التالية :

---

(١) أبو داود (٤٢٩٧) ، وأحمد (٥/٢٧٨) وغيرهما ، وأورده شيخنا في « صحيح الجامع » (٨١٨٣)

العـقبة السابعة :

ســــوء في التربــيــة

لما انفـجر فجر الصحوة الإسلامية ، وبدأت المفاهيم السابقة الخاطئة تصحح ... وقع بعض المسلمين في أخطاء تربوية محدثة فادحة ... صدّعت العمل الإسلامي ، فأضعفت وحدة المسلمين ، وأوهت قواهم

وإليك بعض هذه الأخطـاء ..

الأول :

حصر الإسلام في جزء منه ، وتربية المسلمين عليه ، ومن ذلك :

السياسة والحكم

إن إعطاء السياسة والحكم حقاً فوق حقهما ، له أثره الخطير على النشء في فهم الإسلام من جهة ، وفي التعامل مع الأحداث من جهة أخرى

ولقد مرد كثير من المسلمين على هذا الخطأ ، حتى تكاد تشعر أنْ لا همّ لبعض الدعاة ، ولا شغل لهم إلّا السياسة والحكام ، والأحداث الجارية ، والتمثيليات المخترعة .. الأمر الذي أشغلهم عن تصحيح عقائد الناس ، وإصلاح عبادتهم ، وتعليمهم ، وتربيتهم .. ولم يحصدوا مس ذلك إلا ضياع الأوقات ، وتضييع العباد ، ودّب اليأس - إذا ما فشلوا - في كثير من نفوس الشباب ، ولم يزدد العدو بمواقفهم هذه وتصرفاتهم إلا قوة على قوة ... فهل من متدبر

قال سيّد :

« ولكنَّ لي فقط توجيهاً عاماً ؛ لكل الإخوان ، ولكل الحركات الإسلامية، وهو أن لا تستغرقهم الأحداث الجارية ، وأن لا ينغمسوا فيها ، وفي المناورات الحزبية ، والسياسة ، فإن لهم حقلاً آخر أوسع ، وأبعد مدى ، **وإن كان بطيئاً وطويل الأمد** ، وهو حقل البعث الإسلامي للعقيدة ، وللقيم وللأخلاق وللتقاليد الإسلامية في صلب المجتمعات ، حتى يأذن اللَّه - بالجهد الطويل والصبر - بقيام النظام الإسلامي ، وإنني ألاحظ شدة انغماس [وذكر إحدى جماعات الإخوان] - ومنذ نشأة الجماعة هناك - بالأحداث السياسية ، وقلة التفرغ للتربية » [1]

ومن أخطاء التربية : **تنشئة الشباب على الخلافات وتربيتهم عليها**

إن دخول الشاب سبيل التدين من باب الخلافات ، أمر غاية في الخطورة على مسلك الناشىء في دينه ومعاملته ودعوته ، حيث يعيش في دوامة الخلاف ، فترى ذكره الصباحي والمسائي الخلافات ، ومجالسه الخلافات وحديثه ودينه الخلافات .. يصبح ويمسي ويعيش فيها ... حتى تشغله عن دينه وعلمه ودعوته ، فضلاً عن المفاسد الكثيرة في ذلك ، وبخاصة إذا كان لا يفرق بين أنواع الخلاف ، ولا يعرف حكم كل خلاف والموقف منه ، ولا يميّز بين الخلاف المعتبر الذي لا ينتهي الخلاف فيه الى يوم القيامة ، وبين غيرها من أنواع الخلاف .. وكثير منهم بسبب سوء التربية هذه يسقطون ، وعن الحكمة غافلون [2]

(١) « لماذا أعدموني » (٧٠)

(٢) الخلاف أنواع ، ولكل خلاف حكم وموقف ، فمنها ما يسع المسلم قبوله أو السكوت =

ومن ذلك :حصر **تربية المسلمين في الذكر ذكر الله** ، حتى يظن المريد أنه الدين كله ، وأن الذكر هو النجاة ، فلا يراجع عقيدة ، ولا يصحح عبادة ، ،لا يدرك أن الإسلام عقيدة وعمل ، ودعوة وجهاد ، ومعاملة وأخلاق

ومن ذلك : حصر **تربية الشباب على الجهاد** ... حتى يصبح الجهاد همّه كله ، وظله كله ، وحتى يظن أن الإسلام هو الجهاد ، وأنه لا تقوم للاسلام قائمة إلا بالجهاد ، وأن الجهاد إذا ما توقف توقف الإسلام كله ، وبطلت أحكامه ، وتعطلت عباداته ، وكثير منهم لسوء التربية هذه يملّ ثم ييأس ثم ....

ومن ذلك : **تربية النشء على العقيدة** فحسب ، على أنها نصوص للحفظ وأشعار للترديد ، وأنها لا تتجاوز مجرد الاعتقاد بالقلب ، دون أن يكون لها أثر في حياة المسلم العملية ، مهملين بذلك أهمية الأخلاق ، معرضين عن حسن المعاملة والخطاب ، ملقين للحكمة والموعظة الحسنة وراءهم ظهرياً ، يظنون أن حسن عقيدتهم ، يغفر لهم فساد خلقهم ، وفظاظة مواعظهم ، وسوء معاملتهم

ولهؤلاء جميعاً يقال : إن سرّ هذا الاندحار هو : عدم دخول الإسلام من بابه ؛ باب العلم والإيمان ، والتوحيد والشمول

﴿ يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ﴾ [البقرة - ٢٠٨]

وأن « الإيمان بضع وستون شعبة ...» [١] ومنها إماطة الأذى كما هو معروف ، فكيف بما هو أهم منها وأولى .. وإذا كان سوء معاملة حيوان يؤدي إلى النار « دخلت امرأة النار في هرة حبستها» [٢] فما بالك في سوء معاملة الأخ

= عنه ولو رآه كبيراً ، ومنها غير ذلك ، وللمسألة تفصيل وجدولة في الأجزاء القادمة من السبيل إن شاء الله تعالى

(١) أخرجه البخاري (١-٨) ومسلم (رقم ٥٨)

(٢) أخرجه البخاري (٤-١٥٧) ومسلم (رقم ٢٦١٩) وغيرهما

المسلم ، بل ظلمه واتهامه والوشاية به
فإلى الله وحده المشتكى وإليه المآب .

الخطأ الثاني :

استمرار التربية على التعلق بالرجال والولاء والبراء فيهم ؟

لقد أمضت الأمةُ فترةً من دهرها ، وهي مُتعلِّقةٌ بالرجالِ أكثر من تعلقها بالأصول والثوابت ، والدليل والبرهان ، وكان من مظاهر هذا التعلق : التعصب المذهبي ، وحب رجال المذهب ، وتقديمهم على غيرهم من المذاهب الأخرى ، بل على من هم أعلم منهم ؛ من التابعين ، والصحابة رضوان اللَّه عليهم ، بل تقديمهم على نصوص الكتاب والسنة ... وفي التاريخ الاسلامي صور بشعة من هذا التعصب المقيت ، يجب أن تمحى من الأذهان ، وتطوى من قبل شباب هذه الصحوة إلى الأبد

ولما انبثق نور الصحوة ... توخّى المصلحون الراشدون إصلاحَ هذا الخطأ الجسيم ، والضلال المبين ، ولكنّ بعض الدعاة - وللأسف - بدلاً من أن يقوموا بواجبهم التربوي في التصحيح ، أضافوا إليه ، خطأً من نوع آخر ... وهو التعلّق بقادة أحزابهم وزعمائهم .

صور مؤسفة :

ولقد رأيتُ مقالاً من سبع صفحات ، بمناسبة مرور أربعين سنة على وفاة أحد الزعماء المسلمين بمجلة إسلامية (!) وقد وضعوا صورة زعيمهم المتوفى ، في كل صفحة ، بحيث تكررت صورته في المقال سبع مرات ، زيادة عن الصورة الكبيرة التي في أول المقال ، وفضلاً عن الصورة الكبرى التي غطّت غلاف المجلة

بالكامل من الخارج ! وذكروا من محاسن هذا الداعية ما يستحيي المرء أن يذكره من محاسن رسول اللّه ﷺ ، خوفاً من الغلو المنهي عنه ... « لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم »[1] ؛ مع ما في هذا الغلو ، من مخالفات شرعية عظيمة ، كالتصوير - وبخاصة صور الأموات - وغيره مما حواه المقال

ولا شك أن هذا هو التعلق بالرجال المنهي عنه ، والمفضي إلى عبادتهم ، والعياذ باللّه ... وهل عُبد غيرُ اللّه إلّا عن طريق تعظيم الأموات ، وتصوير صورهم[2]

ولقد أطلق رسول الله ﷺ لفظ العبوديّة على من اشتدّ تعلقه بالشيء وطغى عليه حبّه ، فقال ﷺ : « تعس عبد الدينار ، تعس عبد الدرهم ...»[3]

إن التعلق بالرجال له أثره الخطير على الناشئة ، فضلاً عن مخالفته لهدي الإسلام ، وسيرة سلفنا الصالح ... وما رأينا في سلفنا الصالح من يفعل حين وفاة مثل أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، ما يفعله بعض أهل زماننا حين وفاة مجاهد أو زعيم لهم ، لا يصلح أن يكون ظفراً لأبي بكر وعمر ... بل إنَّ الكفار قد نأوا بأنفسهم عن مثل هذه الأساليب .. فهل من رجل رشيد ؟!

دليل أَهل زماننا :

وممّا لا ريب فيه ، أنَّ تربية الناشئة على التعلُّق بالرجال ، يعني إبطال الدليل

(١) البخاري (٣٤٤٥) وغيره

(٢) راجع تفسير ابن كثير عند قوله تعالى :﴿ وقالوا لا تذرن آلهتكم ...﴾ الآية ٢٣ من سورة نوح

(٣) البخاري (١٤١/٤)

وإهمال العلم ، وإماتة روح البحث العلمي النزيه ، وجَعْل دليل المتناقشين الرجال ! وترجيح المتناظرين الرجال !! وطريق الخلاص هم الرجال ! وهذا باطلٌ بكلِّ حال

وإنه ليُحزن كلَّ عاقل بصير ، أن يرى ما يجري بين الشباب من مناقشات ليست من العلم في شيء ... إنهم يتناقشون عن الرجال ، ويحتجون بالرجال ! ويخاصمون في الرجال ، ويعقدون الولاء والبراء في الرجال ! الأمر الذي أشغلهم عن دينهم وعلمهم ودعوتهم ، وأوجد بينهم الخصومات ، ودفعهم إلى الغيبة والبهتان ، وانتصار كل فريق لرجاله ، حتى رأيت من يقول عن رجل : « شيخ الإسلام » ! في الوقت الذي يزندقه آخَرون !!

قال الشاطبي : « ولقد زلّ - بسبب الإعراض عن الدليل والاعتماد على الرجال - أقوام خرجوا بسبب ذلك عن جادة الصحابة والتابعين ، واتبعوا أهواءهم بغير علم فضلوا عن سواء السبيل »[1]

قال تعالى :

﴿ اتَّبعوا ما أُنزلَ إليكم من ربّكم ولا تَتَّبعوا من دونهِ أولياء قليلاً ما تَذَكَّرون ﴾ [الأعراف:٣]

إي والله ؛ قليلٌ من يتذكّر ... وقليلاً ما نتذكّر ؛ أن اتِّباع الكتاب والسنة والسلف ، مقدم على قالاتِ الرجال [2] !!

---

(١) الاعتصام (٢- ٣٤٧)

(٢) علق بعض الأفاضل على هذه الجملة ؛ بأنَّ السلف كذلك رجالٌ

قلت : لا شكَّ أنَّهم رجال ، ولكن الحجة بمجموعهم من جهة ، ولتزكية الشرع لهم من جهة ثانية ، وبهذا يفترقون عن غيرهم ، وليس ها هنا محل تفصيل ذلك .

دليل السَّلف :

ولقد أتقنَ ﷺ غرسَ هذا الأصل في نفوس أصحابه ، فأخرج جيلاً يدرك معنى الدليل ، ويفهم حق الرجال ، ويحسن التوفيق بينهما

قال ابن عباس :

« أراهم سيهلكون !! أقول : قال اللَّه ، وقال رسوله ، ويقولون : قال أبو بكر ، قال عمر ! » (١)

رحمك اللَّه يا ابن عباس ... تقول هذا في أبي بكر وعمر ... فكيف لو رأيت أهل زماننا ، وهم يردّون طريقة النَّبي ﷺ ويتبعون طريقة جورج وجيمس لقول رجل لا علم عنده ولا اتباع .. فما عساك أن تقول ؟!

وعندما أفتى ابن عمر بالتمتّع ... قالوا له : إنَّ أباك ينهى عنه ! قال رضي اللَّه عنه : « أمرُ أبي يتّبع أم أمر رسول اللَّه ﷺ ؟ ... » (٢)

وكان أحياناً يقول : « ومن أبي ؟ » استنكاراً وردّاً على من احتجُّوا عليه بأبيه

مَن أبوك يا ابن عمر ... رحمك اللَّه ؟! أبوك أحد العمرين ... وهو الذي هاجر علناً ... وهو الذي تفر الشياطين منه ... وهو أحد المبشرين بالجنة ... أبوك لو كان نبي بعد رسول اللَّه لكان هو ... وهو أحد الخلفاء الراشدين ... أبوك فاتح الدنيا وهازم الروم والفرس ... أبوك الذي أمرَ رسولُ اللَّه ﷺ باتباعه وقال :

(١) أخرجه أحمد (٣٣٧/١) ، والخطيب في « الفقيه والمتفقه » (١٤٥/١) ، وابن عبدالبر في « جامع بيان العلم وفضله » (٢٣٩/٢) بألفاظٍ

(٢) أخرجه الترمذي (٥٥٦/٣ - تحفة الأحوذي) وقال الترمذي : « هذا حديث صحيح » وقال شيخنا : صحيح الإسناد

وأخرج نحوه أحمد (٩٥/٢) ، وقال أحمد شاكر في تعليقه على المسند : « إسناده صحيح» (٥٧٠٠)

« اقتَدوا باللذين من بَعدي أبي بكر وعمر » [1] .. أبوك له - أيضاً - حق الطاعة فهو أمير المؤمنين ... أبوك هو أبوك الذي له حق الطاعة الأبوية

ثم تقول : ومن أبي ! رحمك اللَّه ، فكيف لو رأيت أهل زماننا ! وهم يلهثون وراء زعماء ما تدبروا كتاب اللَّه ، ولا عَرفوا سنَّة نبيه ﷺ ، وإن تدبروا أو عرفوا ، فما قَدَروهُما حق قدرهما

فماذا تقول ... لو رأيت هؤلاء ... وقد قلت عن أبيك : « ومن أبي ! » ؟!

نعم - واللَّه - إنَّه لحَقٌّ ، ومَن أبوك أمام خالق أبيك ! خالق السماوات والأرض ، ومَن أبوك أمام رسول ربِّ أبيك المعصوم ﷺ .. أفلا يَنتهي إخواننا عن الاحتجاج بالرجال .. ولكن ﴿ **قليلاً ما تذكرون** ﴾ [الأنعام:٢]

الخطأ التربوي الثالث :

التربية على الحزبية ، والولاء والبراء عليها :

في أحد المراكز الإسلامية خلا بي شابٌّ وقال : إذا أمرني الحزب بانتخاب رجل ليس بصالح ، وهناك رجل صالح ، فأيهما أنتخب ؟ قلت : الرجل الصالح قال : وأمْرُ الحزب ؟

قلت : أمر اللَّه ، وأمر رسوله ﷺ فوق أمر الحزب و « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق » [2]

قال : إذن ؛ - وأي قيمة للحزب والتنظيم إذا لم يُطَع ؟

---

(١) أخرجه أحمد (٣٣٩/٥) ، والترمذي (٢٩/٢) وغيرهما ، وصححه شيخنا في « صحيح الجامع »

(٢) أحمد (٦٦/٥) وغيره ، وصححه شيخنا في « صحيح الجامع »

قلت : وأي قيمة - إذن - لأوامر اللَّه ورسوله إذا لم تُطَع ؟ وأي قيمة لخليفة المسلمين إذا أمر بمعصية ولم يُطَع ؟

قال : لكن هذا يؤثِّر على التنظيم !

قلت : إذا كان هذا يؤثر على تنظيم الحزب ، فإنَّ مخالفة أمر اللَّه تؤثِّر على دينك ، وإنَّ مخالفة ولي الأمر يؤثِّر على تنظيم الدولة الإسلامية الشرعية ... ومع هذا فليست هذه حجة ، وإنَّما الحجة التي ذكرنا عن نبيِّنا ﷺ : « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق »

قال : إذن ؛ يفصلونني من الحزب

قلت : بئس البقاء في الحزب ، ولو لم يأمر بالمعصية ، ذلك لأنَّ الحزبية بحدِّ ذاتها باطلة، فيكف إذا أَمَرَتْ بمعصية اللَّه ... فباطلٌ على باطلٍ ..

فانظر - حفظك اللَّه - كيف أفسدت الحزبيةُ فِطَرَ النَّاس ! وكيف خوفوهم بالطرد والفصل ! وغير ذلك مما لم ينزل اللَّه به سلطاناً ، بل صدُّوهم عما أنزل اللَّه به سلطاناً ، واللَّه عزَّ وجلَّ أنزل : ﴿ **المؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض** ﴾ [التوبة:٧١]

وهم ربَّوا أتباعهم على : « الحزبيون والحزبيات بعضهم أولياء بعض ... » !

وإن لم يكن في الحزبية إلّا تعطيل هذه الآية ، لكفى بها باطلاً

وأما بعض الكُتّاب الحزبيين ، فقد كادت الحزبية أن تعمي أبصارهم عن هذه الأمور الخطيرة ... وتفطَّنوا إلى شاب أخطأ في أسلوب ، أو التزم سنن المصطفى ﷺ ... فراحوا يسوّدون الصفحات في اتهامه ، وعمالته ، وتطرُّفه ، وتفريقه لكلمة المسلمين !! وهدمه كيان الأمة !!!

فهل رأيت أعجب من هؤلاء ؟! أفمن عطل فِطَرَ النَّاس ، وردَّ أقوال المصطفى ﷺ ، وفرق الأمة بالحزبية اللعينة ... كمن هو مطيع للَّه عزَّ وجلَ ، ولرسوله ﷺ ، متبع لصحابته ... هل يستويان مثلاً ... ؟!

ثم ؛ من الذي فرق المسلمين ، وبخاصة في بعض البلاد التي كانت على قلب رجل واحد ، وعقيدة واحدة ، ومنهج واحد ، ثم جاءتها الحزبية البغيضة ، ففرّقت صفوفها ، وشتّت شملها .

وما أصدق المثل العربي فيهم : « رمتني بدائها وانسلَّت » ، والمثل الشعبي : « ضربني وبكى ، وسبقني واشتكى » !! وإلى الله المشتكى .

أخطار الحزبية :

إن للحزبية أخطاراً جسيمة ، ومفاسد عظيمة ، وليس فيها من مصلحة سوى تفريق الأمة وبعثرتها

وما كان من مفاسد في التفرق فهي مفاسد الحزبية ، فالحزبية والتفرق اسمان لمسمى واحد ، وبالتعبير العصري : عملة ذات وجهين .

فالحزبية (التفرق) يضعف الأمة ، ويشتت الكلمة ، ويقلب مفهوم الدليل عند الناشئة .. فيصبح دليلهم : حزبهم ، وحجتهم : قول زعيمهم .

والحزبية تخدش الولاء والبراء لله ولرسوله وللمؤمنين فتفسد عليهم أخوتهم بما سنّه الحزب من أنظمة ، وبثّه بين أفراده من إيحاءات ، وبما يرفعه من شعارات

وبهذا يدفن الولاء والبراء ، وتوأد الأخوة ، ويصبح جلّ اهتمام الحزبي حزبه ، وقيادات حزبه ، وأعضاء حزبه ، وشعارات حزبية ينتصر لهم ، ويدافع عنهم ، بحق وبغير حق ، غافلاً عن أن المؤمنين والمؤمنات كلهم أعضاء متكافئون

في حزب واحد ، حزب الإسلام ، حزب الأمّ الذي لا يجوز فيه تحالف أناس دون أناس ، ولا تحزب أناس على حساب أناس ، ولأجل هذا قال تعالى ﴿ ولا تكونوا من المشركين من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون ﴾ [الأنعام : ١٥٩] .

وقال عليه الصلاة والسلام :

« لا حلف في الإسلام »[1] وفي رواية « ولا تحدثوا في الإسلام حلفاً » .

ولقد فصلنا القول وعرفنا الحزبية وفرقنا بينها وبين التجمع المشروع بضوابط دقيقة بكتاب « الحزبية » يسرّ الله نشره

---

(١) البخاري مرسلا (٥٧٣٣) ومسلم (٢٥٢٩) والثانية لأحمد (٢/٢٠٧)

الخطأ الرابع :

فقدان التأصيل

إن العاقل المتأمّل في أحوال شباب الجماعات الإسلامية ، يجد هذه الحقيقة : حقيقة فقدان التأصيل في العملية التربويّة ، ويرى بأم عينه معظم المسلمين ، وهم يدورون في فلك العاطفة .. في عملهم ومواجهاتهم ، وفي مناقشاتهم وتعاملهم ...

ويمكن إرجاع معظم هذا ، ومعظم الأمراض والمصائب التي حلت بالأمّة إلى هذا الخطأ خطأ **فقدان التأصيل** .. إذ بفقدانه يُفقد الثبات والتوازن ، فيحصل التصدّع والخراب ، وتكون المصائب والنكسات .

وقد تعرضنا لذلك في مباحث شتى من الكتاب ... وأمثلة ما يقع بين الشباب من المحاورات والمهاترات كثيرة

جاءني شابٌّ مهموم ... وعلائم الغضب بادية على وجهه ... قال : إحذر فُلان

قلت : لمَ ؟

قال : إنَّه يُخطِّىء العالم (الفلاني) .

قلت : هل يطعن به ؟

قال : لا

قلت : هل يشتمه ؟

قال : لا

قلت : هل يغمز به ؟

قال : لا ...

قلت : سبحان اللَّه ! ... يُخَطّأ عمر وعلي رضي الله عنهما ؟ ... فلا شيء ... ويُخَطَّأ زيد وعمرو ؟ فتقوم الدنيا !!!

إنَّ اللَّه لم يعصم لنا - نحن المسلمين - إلّا واحداً ، ولم يأمرنا باتباع إلا واحداً ... وهو نبيُّنا ﷺ ، وهو وحدَه الذي إذا أمر يُطاع ... وإذا فعلَ يُتَّبع ... بلا تَردّد ولا مراجعة ، وما عداه ، فيؤخذ من قوله ويُردّ ... حسب ما هو مفصَّل في مظانِّه

بل لقد آل الأمر إلى أنكى من هذا ، نعم ؛ أنكى من تخطئة أبي بكر وعمر ، وعصمة زعيمهم ... آل الأمر ... إلى ردّ أحاديث النَّبي ﷺ بفعل زعيمهم

حدَّثنا الثقة قال : عُرض على بعض الحزبيين ، أحاديث تحريم التصوير ! فقالوا : لو كانت هذه صحيحة لما تصوَّر زعيمنا ... و ...

والأحاديث صحيحة في « البخاري » و « مسلم » .. فانظر كيف ردّوا أحاديث النَّبي ﷺ بمجرد فعل زعيمهم ! فكيف لو قال زعيمهم قولاً يخالف تلك الأحاديث ؟! والقول أقوى من الفعل ... وهم في الوقت نفسه ، يُشَنِّعون على مَنْ أعلَ حرفاً أو حرفين في بعض أحاديث « البخاري » و «مسلم » بناءً على دراسة حديثية دقيقة !

فردُّ بعض الأحاديث جملة وتفصيلاً حسب الهوى والرجال ... حقٌّ ... وإعلال اللفظة واللفظتين ... حسب دراسة علمية ... خيانةٌ

قتل امرىء في غابة جريمة لا تُغتفر
وقتل شعب آمن قضيَّة فيها نظر

جواز الغمز بالسَّلف :

جاءني أحدهم -مرّةً - غاضباً ، قال : أما آن لبعضهم أن يكفُّوا عن الطعن بدعاة الإيمان ، وحملة راية الإسلام ؟

قلت : خيراً ... ما الأمر ؟

قال : إن بعضهم ما يزالون يغمزون - بل يطعنون - (بفلان) ..

قلت : أو تدري ماذا قال (فلان) صاحبك ؟ وماذا يفعل ؟

قال : لا يهمُّنا ... يهمُّنا أن لا نشتم الرجال ... وأن لا نفرِّق الأمة ..

قلت : إنَّه هو الذي يشتم ... ولا يشتم إخواننا فَحَسْبُ ، ولكنه يشتم بعض أصحاب رسول اللَّه ﷺ ... يغمز بعلماء التفسير ... يطعن بحفاظ الحديث

أجائز هذا لصاحبك ؛ مُحَرَّمٌ على غيره ؟ فهل صاحبُك أعز عليك من هؤلاء ؟ ثم جئت تغضب لرجل بذيء الكلام ، سليط اللسان ... ولا تغضب لأعلام أمة زكّاها اللَّه في كتابه ، ورسوله في سنته ! بل يا ليت الأمر اقتصر على الغمز والطعن بالصحابة أو العلماء ، ولكنّ هذا المتعالم تمادى على بعض سنَّة رسول اللَّه ﷺ وبعض كتاب اللَّه يستهزىء بهما ... ويسخر بمن يعمل به...

إنَّ صاحبك يستهزىء بمن جعل شهادة المرأة في المال على نصف شهادة الرجل .. ويردُّ قوله ﷺ « لن يفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة »[1] أهذا الرجل ؛ أعزُّ

(١) أخرجه البخاري (٤٤٢٥) وأحمد (٥-٣٨) وغيرهما

عليك من اللَّه ورسوله ... ؟ أهذا رجل يهمُّك ؛ وسنة رسول اللَّه ﷺ لا تهمُّك...

شتم امرىء متعالم جريمة لا تغتفر
وشتم جيلٍ فاضل قضيةٌ فيها نظر

هكذا تفعل الحزبية بأصحابها ، فهل من معتبر ؟!

اختبار :

وإن كنت في ريب مما نقول ... وكُنت ممن خُدع بمثل هؤلاء ، فأجرِ معهم الاختبار التالي كي تعلم مدى تأصيلهم :

قل لهم : ما أعدلَ ديننَا ... فقد خُطِّىء على المنبر كبارُ الأُمَّة ... ولم يغضبوا .. ثمَّ انظر ... فلن تجد من أحد منهم نكيراً ! ...

ثم دَعهم فترة ...

ثم قل لهم : إنَّ « فلاناً » - واذكر زعيمهم أو داعيتهم - قد أخطأ ...

فإن قالوا : نعم ... ما دليلك ؟؟

فاعلم أنَّهم على الحق في هذه القضية ... وإن أرغوا وأزبدوا ... فإياك وإياهم ...

إنها صور مؤلمة من صور فقدان التأصيل ، سقناها للاعتبار .

ما معنى التأصيل ؟

إن معنى التأصيل : أن يُرَبَّى النَّاس على العلم والدليل ، لا على العاطفة

والتزيين ، وأن يدرّبوا على التعلق بالحق والإسلام ، لا على التعلق بالحزبية والرجال ، وأن يُرَبَّوا على أدب الخلاف والاتباع ، لا على المشاحنة والابتداع ... فلا يُرَبّوا على اتّباع العالم لأنَّه ابن بلده ، وعلى حب الداعية لأنَّه ابن قبيلته ، ولا السماع للخطيب لأنَّه يتكلم في الحكام ، ولا على الصلاة وراء القارىء لحسن صوته ، ولا على مناهضة الحكام لأنهم رفعوا أسعار الخبز والكهرباء ، غاضّين النظر عن الكفر والإيمان ، والعقيدة والعلم ، والاتباع والتقوى ، وتحكيم دين الله.

والمقصود بالتأصيل أيضاً :

أن يُعلّم المسلم أصول دينه قبل أن يُعلّم فروعه ، وأن يُعلّم القاعدة قبل المثال .. وأن تُؤصّل فيه معنى الألفاظ التي غابت عن ذهنه قبل تلقينه الحرام والحلال

فيعلم التوحيد قبل تعليمه الأحكام ، ويعلم وجوب الاتباع ومعناه ، قبل السنن والواجبات ، وحرمة الابتداع ومعناه ، قبل أن يقال له : هذه بدعة ، وأن يعاد إلى ذهنه معنى الألوهية والربوبية ، وأهمية معرفة صفات الله وأسمائه ، ومعنى العبادة والحاكمية ، والأخوة والتعاون ، وأن ما أصابه بما كسبت يداه لا بما فعله غيره ، إلى غير ذلك من الأصول والقواعد التي تدفعه إلى حظيرة الإيمان ، وتغرس في قلبه حب الله عز وجلّ ورسوله ﷺ

وعندئذ يصبح مسلماً صالحاً ، إذا أُمر بالعبادة فعل ، من غير تردد ولا ملل وإذا نهي عن المعصية والمنكر ، انتهى وانزجر ، من غير أسف ولا ضجر

وحينئذ يدرك الأولويات ، ولا يتخبط فيها ، ويعي المهمّات ولا يتلكأ فيها

ووقتئذ يصبح نافعاً كالماء ، راسخاً كالجبال ، لا تزلزله الأعاصير ، ولا يخترقه الأعداء ، ويصمد في وجه الموجات الجارفة ، والمبادىء المنحرفة

هكذا منهج القران ، وهكذا كان شأن رسول الله ﷺ مع أتباعه ، وهكذا ربّى رسول الله ﷺ أصحابه ، فقد علّمهم التوحيد قبل الأحكام ، وغرس في نفوسهم بعون الله - الإيمان قبل الحلال والحرام ، ولقّنهم أصول الاتباع قبل أجزائه وحكم الابتداع وقاعدته قبل تمثيله ، وبعبارة مختصره : ربّاهم على الكليات قبل الجزئيات وعلم الأصول قبل الفروع[1]

فقال ﷺ :

« من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردّ »[2]

وعندئذ علم الصحابة البدع دون تمثيل ، ومعظم مسلمي زماننا لايعلمون هذا أصلاً

وقالت عائشة رضي الله عنها :

« إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل ، فيها ذكر الجنة والنار ، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام ، نزل الحلال والحرام ، ولو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر لقالوا : لا ندع الخمر أبداً ، ولو نزل لا تزنوا ، لقالوا : لا ندع الزنا أبداً ، لقد نزل بمكة على محمد ﷺ - وإني لجارية ألعب - ﴿ **بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر** ﴾ وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده »[3]

وقال : ابن عمر رضي الله عنه

« لقد عشنا برهة من دهرنا ، وإن أحدنا **يؤتى الإيمان قبل القرآن** ، وتنزل

---

(١) في الإسلام أصول وفروع من حيث الوجود ، ومن حيث الأولويات العمليّة والدعويّة ، ولا يعني هذا ؛ الأخذ بالأصول وإهمال الفروع ، كما هو منهج الطوائف المنحرفة ، وقد عُقد لهذا فصل خاص في الأجزاء التالية إن شاء الله تعالى .

(٢) مسلم (١٧١٨)

(٣) البخاري (٤٩٩٣)

السورة على محمد ﷺ ، فيتعلم حلالها وحرامها ، وما ينبغي أن يوقف عنده فيها ، كما تعلمون أنتم القرآن ، ثم قال : لقد رأيت رجالاً يوتى أحدهم القرآن فيقرأ مابين فاتحة إلى خاتمته ، ما يدري ما أمره ولا زاجره ، ولا ما ينبغي أن يوقف عنده ، ينثره نثر الدَّقل » [1]

أن يمارس المربي مع تلاميذه العمليةَ التربويةَ على ساحة الواقع ، لا من وراء دفَّة الدرس ، ومنبر الخطابة .. يجب أن يعلمه كيف يأمر بالمعروف ، وكيف ينهى عن المنكر ... لا أن يحثه على ذلك دون تربية ولا تدريب

خطورة فقدان التأصيل :

تتجلى خطورة فقدان التأصيل في النكسات التي تصيب العمل الاسلامي وتضعفه ، ويظهر هذا جليّاً في التيه المنهجي ، والاضطراب الفكري الذي يعيشه كثير من المسلمين ، فضلا عن الحيرة القاتلة ، والقلق النفسي اللذين يصرح بهما كثير من الشباب

أضف إلى هذا ، ما تخلفه هذه الأمور من يأس قاتل ، وملل فاشل ... مع ضياع للأوقات ، وهدر للطاقات ، ويتمثل هذا في المهاترات والرمايات التي تحصل بين شباب الصحوة ، من غير نتيجة تذكر ، ولا ثمرة تقطف ، إلا بثّ القيل والقال ، وإثارة الشحناء والبغضاء اللهم إلا ما كان لنصرة حق

وتبرز خطورة فقدانه ، في تقييد الحق بمصالح الناس ، وضربه بأغلال

---

(١) أخرجه ابن مندة في الايمان (زقم ٧ ٢) وقال « هذا إسناد صحيح » وأخرجه الحاكم (١-٣٥) وقال : صحيح على شرط الشيخين ولا أعرف له علّه » ووافقه الذهبي ، وعزاه في المجمع (١-١٦٥) للطبراني في الأوسط وقال رجاله رجال الصحيح ، وهو في مجمع البحرين (١-٢٠١) (رقم -٢٠٩) والدقل : التمر الرديء

العاطفة والهوى ، من تقديم الرجال والحزبية على الدليل ، والقبليّة والعصبيّة المقيتة على البرهان ، ومصلحة الذات وحبّها على الحق المسجون ، والهدى المهجور ، وينتج عن فقدانه : خلل في التوازن ، وتجاف عن الإنصاف ، وتردّد في معرفة الحق أو العمل به ... فتقدم الجزئيات على الكليات ، وتخلط أوراق الأولويات .. فيقدم السواك على التوحيد ، والسياسة على الهداية ، والانشغال بغيرنا عن أنفسنا .

إن عدم التأصيل يعني : التحرر من القيود الشرعيّة ، والقواعد المنضبطة ، ليقع المرء في حمأة الآصار [1] ، وسوء أسلوب الدعوة إلى الله ، فيكلف نفسه مالم يأمر به الله ، من الغلو في الهجر ، أو التساهل في الإنكار ، ويدعو إلى عمل الجوارح قبل يقين القلب الذي « إذا صلح صلح الجسد كله » وينطلق نحو المواجهة بلا ضوابط شرعيّة ، إلى غير ذلك من الارتجال .

إن عدم التأصيل يعني : بناء بلا أساس ، وشجرة بلا قرار ، وزبداً على ماء

إن مثل عدم التأصيل : كمثل رجل عجول ، استخف عقول الناس في إضاعتهم الأموال والأوقات في بناء أسس بيوتهم ، فبنى بيتاً بلا أساس .. ثم راح ينفق الأموال على تزيينه ، ويضيع الأوقات على شكله ... حتى إذا أصبح يسرّ الناظرين ، ويفتخر به أمام العالمين .. جاءته ريح عاصف ، فجعلته خُشباً ملقاة ، وأحجاراً متناثرة كأن لم يكن من قبل .. فأصبح يقلب كفيّه على ما أنفق فيه ، ويقول : ياليتني بنيت له أساساً ، وركزت له أصلاً

﴿ ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين باذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم

(١) الآصار : جمع إصر ، وهو تحميل النفس الأعمال الشاقة فيشغلها ذلك عن الخير

يتذكرون . ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار ﴾ [ابراهيم : ٢٤-٢٥-٢٦]

وإذا رحل التأصل ؛ حلّ محلّه التمثيل ، والعاطفة والهوى ، وسهل حينئذ الاختراق ... والتحكّم ... والاجتثاث

﴿ فأمَّا الزَّبدُ فَيَذهبُ جفاء وأمَّا ما يَنفعُ النَّاس فيمكُث في الأرض ... ﴾ [الرعد:١٧]

والزبد هو : ما يظهر على سطح الماء عند تلاطم أمواجه ، ولذلك تراه سريع التحرك ، خفيف الوزن .. ريح تأخذه يمنة ، وريح تأخذه يسرة .. تحسبه كثيراً وهو في الحقيقة قليل ، بل معدوم ، لأنَّ مظهره غير حقيقته ، فإذا جاءه ريح ، أو مضى عليه زمن ، فإذا هو كالسراب

وأما الماء : فيكون تحت الزبد ، ثابتاً على الأرض وهادئاً ، ثقيلاً لا تزيله الرياح ، ولا تؤثّر به العواصف ، يحسبه الجاهل لا شيء ، فإذا هو عند الحاجة كل شيء

ووالله ما رأيت أصدق من هذا المثل على العاطفة والحماسة ، والعلم والتأصيل :

فأما العاطفة والحماسة : فتراها أكثر من حجمها ، تثور لكلمة ، وتتحرك ببسمة ، حتى إذا حقّت الحقيقة ، وطلب منها العطاء ، فإذا هي زبد أو سراب ، وحسبك أنَّ النَّبي ﷺ لم يرب أصحابه عليها

وأما العلم والتأصيل ؛ فهو : بمنزلة الماء من حيث هدوؤه وسكينته ، ونفعه

وثباته ، وإذا حقّت الحقيقة ، وطُلب منه النفع ، كان أنفع شيء ، وحسبك أنَّ النَّبي ﷺ ربَّى أصحابه عليهما ، فقطف المسلمون من بعدهم قطاف هذا العلم والتأصيل إلى يوم القيامة

ولّما أعرضنا عن ذلك ، وربّينا المسلمين للمواجهة من أجل الخبز والإسكان أُدرك ذلك ورُخّص لهم ما يشتهون ، فاشتروه بالولاء والبراء ، وحصدنا من بعد ذلك المصائب والملل ، والخيبة والفشل ، ورغم هذا كله ، ما زلنا نزعم أنها ثورات دينيّة ، وانتفاضات إسلامية ، ومواجهات إيمانية وهي - والله - لا تعدو أن تكون ثورات الخبز والإسكان ومواجهات الماء والكهرباء ، ولا أدل على ذلك من الثمار التي حُصدت ... وقديماً قيل : « من ثمارهم تعرفونهم »

أليس هذا هو الواقع ..؟! فمن - إذن - يفقه الواقع .. ؟!؟

ولا يدرك هذا ومغزاه ، إلّا عالمٌ لبيبٌ ، أو ربانيٌّ موفقٌ ، أو مخلص متبع .

واللَّهَ أسألُ أن نكون جميعاً منهم

فهو الحق الذي أُمِرنا به في الكتاب والسنة ، وهو الطريق الذي سلكه رسول اللَّه ﷺ ، وهو الواقع الذي نطقت به الأحداث

وأيم اللَّه ؛ ما لم تدرك هذه الأمور ... فجميع أعمالنا ماضية إلى الثبور ، وسيعلم الذين يخالفون هذا ؛ أي منقلب سينقلبون - وسوف يندمون ، ولات حين مندم - ما لم يسارعوا إلى التصحيح والتأصيل ، ويسعوا في العلاج والتضميد

وإنَّ ما جرى للصحوة من التجارب والبلايا ، كافٍ لاعتبار كل ذي لب

وتقوى ، أن يقنع بصحة هذا المنهج ، وثباته وأصالته ، وليس للعاقل التقي إلّا قول الأنبياء حين لم يقتنع أقوامهم بدعوتهم :

﴿ فانتظروا إنّي معكم من المُنتَظرين ﴾ [الأعراف:٧١]

و ﴿ فَستذكرون ما أقول لكم وأُفَوِّضُ أمري إلى الله ﴾ [غافر:٤٤]

وبهذا يكون قد ذُكر معظم أمراض المسلمين الرئيسة ، وأرجو الله عز وجل أن يكون هذا الكتاب خطوة من خطوات الشفاء والتأصيل، وأن ينفع به ، إنه ولي ذلك وأهله

هل من أمل في الشفاء...؟

« هل يعتقد إنسان بعد هذه المصائب التي حلّت بالأمّة ، والأمراض التي تفشت فيها ، أنه س الممكن لهذا المريض أن يشفى ، ولهذا العليل أن ينهض .. ثم أليس في طرح مثل هذا الموضوع ؛ تيئيس للعباد ، وتشميت للأعداء »

بلى - واللّه - سيشفى المريض ، ويزول الشر ، ويظهر الخير ، ويعمّ الاسلام أنحاء الأرض قاطبة ... ودون استثناء [1] ، وأَبشر بتحقيق قوله تعالى :

﴿ **هوَ الَّذي أرسلَ رَسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدِّين كله وَلو كَره المشركون** ﴾ [التوبة:٣٣]

كيف لا يشفى ... وَوَعْدُ اللّه حقٌّ : ﴿ **وَعَد اللهُ الَّذينَ آمنوا مِنْكُم وَعملوا الصَّالحات ليستخلفنَّهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم** ﴾ [النور:٥٥].

ففي مناسبة الآية الأولى أخرج مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ :

« لا يذهب الليل والنهار حتى تُعبد اللات والعزى ، فقالت عائشة : يا رسول الله إن كنت لأظن حين أنزل الله ﴿ **هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهرَه على الدين كله ولو كره المشركون** ﴾ أن ذلك تامّاً ؛ قال :

(١) الاستثناء : هو أن يقول الحالف أو المتكلم إن شاء اللّه والإستثناء ها هنا لا معنى له لأن الله قد شاء وقضى أن يزول الشر ، ويظهر الخير وتنصر الأمة

« إنه سيكون من ذلك ما شاء الله » [1]

وقال ﷺ :

« ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار ، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين ، بعز عزيز ، او بذل ذليل ، عزاً يُعز به الإسلام ، وذُلّاً يُذل به الكفر » [2]

وفي الباب حديث حذيفة المشهور أن النبي ﷺ قال :

« تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها الله إذا شاد أن يرفعها ، ثم تكون خلافة على منهاج النبوّة ، فتكون فيكم ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون ملكاً عاضّاً ، فيكون ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون ملكاً جبرياً ، فتكون ماشاء الله أن تكون ، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ، **ثم تكون خلافة على منهاج النبوة** ، ثم سكت » [3]

وفي الكتاب والسنة نصوص كثيرة تبشر بأن المستقبل لهذا الدين العظيم ، مهما كاد الكائدون ، وخطط الظالمون

قال ﷺ : « بشّر هذه الأمة بالسَّنا ، والدين ، والرفعة ، والنصر ، والتمكين في الأرض ...» [4]

(١) أخرجه مسلم (زقم -٢٩٠٧) وغيره

(٢) أخرجه أحمد (١٠٣/٤) والحاكم (٤-٤٣٠) وقال : « صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي وصححه شيخنا في السلسلة (رقم ٣) والتحذير (١١٨) وقال هو على شرط مسلم

(٣) أخرجه أحمد (٤-٢٧٣) وغيره وصححه شيخنا في الصحيحة زقم ٥

(٤) أخرجه أحمد (٥-١٣٤) وابن حبان (رقم ٤٠٥) والحاكم (٣١١/٤) وصححه ووافقه الذهبي والمنذري وشيخنا الألباني في أحكام الجنائز (٥٢)

ولقد حدثنا التاريخ حديثاً حفظناه : أن أمّة الاسلام أمّة حيّة ، لا تُيأسها هزيمة ، ولا تبيدها عاصفة ، ولا يثنيها عن عزيمتها طواغيت ظلمة ، ولقد نزل بساحة هذه الأمّة من الأعداء ، وحلّ بديارها من النكبات ، وتسلط عليها من الطغات ، مالم يحدث في أمّة أخرى على الاطلاق

ولو أن أمّة من الأمم أصيبت ببعض ما أصيبت به أمتنا ، لفنيت عن بكرة أبيها

ولو أن أمّة من الأمم تسلط عليها ما تسلط على أمتنا من الظلمة ، لما بقيت لها باقية ، ولما استقر لها قرار .

إذ ما انفكت المصائب على هذه الأمّة تتوالى ، ولا فتئ الطغات عليها يتناوبون ، وما برح الأعداء بها يكيدون ، وما يزال المنافقون والذين في قلوبهم زيغ يتربصون بها الدوائر .

والغريب في شأن هذه الأمة ، أنها ما تكاد تستفيق من مصيبة ، وتقف على أقدامها ، إلا ويأتيها ما يرقق مصيبتها الأولى .

وكان في كل هجمة ، يظن الأعداء والذين في قلوبهم مرض : أنها القاضية .. ويأبى الله عز وجل إلا أن تبقى هذه الأمّة ما بقيت السماوات والأرض .

فما كادت الفتنة الأولى فتنة صفين والجمل تلقي رحاها .. إلا وانقض على هذه الأمة عَدُوان :

عدو داخلي هو أخطر من صاحبه ، وهو الاختلاف ، والتّفرق ، والمعارك الطاحنة التي دارت رحاها على مدى قرون ،

وعدو خارجي ، خبيث ماكر ، لئيم فاجر يتربص بهذه الأمّة الدوائر

استغل هذا التفرق ، فعقد معه صفقة تعاون ، نفذ من خلاله يزمجر ويهدم.

فمن الدماسقة [1] .. وما فعلوا بهذه الأمة من سفك الدماء ، وتحريق البلاد إلى حملة الصليبيين الأولى ، وما عملوا فيها من الفساد والاستعباد ، وجثوا على صدر هذه الأمة عشرات السنين بل مئات ... إلى هجمات المغول والتتار ، وما أحدثوا من التخريب والدمار

ثم جاءت الحملة الصليبية الثانية ، لتنيخ بكلكلها على بلاد المسلمين قاطبة إلا ما حماه الله من أرض الحرمين وما حولها .

ثم خرج الصليبيون مخلفين وراءهم أذناباً كان شرهم على الأمة أعظم من شر أسيادهم

وزيادة على هذين العدوين ، ما أصاب الأمة من الأمراض الوبائية ، والمجاعات الجماعية ، التي كادت أن تهلكها

وكان في كل هجمة ، يظن الأعداء والذين في قلوبهم مرض أن هذه هي القاضية على الأمة ... ويأبى الله عز وجل - رغم هذا كله - إلا أن تبقى هذه الأمة تصارع الأحداث ، وتصنع التاريخ ، لتسجل فيه أعظم معارك عرفها تاريخ البشرية .

وكان الله يقيض في كل مرة لهذه الأمة أفذاذاً ، عجزت الأمم الأخرى عن ولادة أمثالهم ، رفعوا رايتها ، وأعادوا لها سؤدها وكرامتها بعد تلك الفتن العمياء

فقيض الله لها الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز رحمه الله ليحق حقها ، ويبطل ما ظهر فيها من باطل

(١) الدماسقة : جمع دمستق . وهم ملوك الأرمن ، راجع « البداية » لابن كثير (١١-٢٤٣ وما بعدها)

ثم بعث فيها صلاح الدين رحمه الله ، بعدما كاد المسلمون أن ييأسوا ، فقام يوحّد صفوفها ، ويعلي رايتها ، ويذيق الصليبيين هزيمة ما تزال غصتها في حلوقهم ، وصورها في أذهانهم

ثم قام فيها شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله ، يعيد لها الفهم الصحيح ، والتأصيل المتين ، والمنهجية المستقيمة في العلم والعمل والدعوة والجهاد

ثم تصدى رحمه الله وأمراء زمانه لحملات التتر التي لم تبق ديارا من ديار المسلمين مرت بها إلا عاثت فيها فساداً ... فانقلبوا بفضل الله على أعقابهم خاسرين ثم انقبلوا - بإذن الله - مسلمين

ثم .. ثم .. وكذلك كان الله في كل مرة يقيض لهذه الأمة علماء ، يجددون لها أمر دينها ، وقادة يرفعون رايتها

« إن الله يبعث لهذه الأمّة على رأس كل مائة سنة من يجدّد لها دينها »[1]

وكاد اليأس - قبل سنين خلت - أن يتمكن من قلوب المسلمين ، بعد ما انتشر في الأرض الفساد ، وتشعبت الأفكار الكفرية في العباد ، وظن الناس أن لا قائمة للاسلام .. وإنك لتمر ببعض القرى ، فلا تكاد تسمع لله ذكراً ، ولا ترى في بيوته عُمّاراً

ثم .. وبتقدير العلي القدير وفضله .. بعث هذا البعث من الصحوة الاسلامية ، ليغيظ بهم الأعداء ، وليعيد بهم لهذه الأمة واجبها في الدعوة والهداية والتمكين

ثم ما إن تفتحت زهرة هذه الصحوة ، إلا وجن جنون الأعداء ، وأعاد الشيطان لأذهانهم صور « القادسية » و « اليرموك » ، و « الزلّاقة » و « عمورية »

(١) أخرجه أبو داود (٤١٢٣) وغيره وصححه الحافظ ، وشيخنا في صحيح الجامع (١٨٧٤)

و « حطّين » و « عين جالوت » ، فارتسمت في أذهانهم هزيماتهم المنكرة ، وفلولهم الهاربة ، وأسراهم المسلسلة

فارتعدت لهول هذه الذكريات فرائصهم ، وقامت قيامتهم ، وأشحنت نفوسهم ، وأجمعوا على هذه الصحوة كيدهم ، ثم جاؤوا صفاً ، مستعينين بما خلفوه في حملتهم الصليبية الأخيرة من المنافقين والعملاء ، فنصبوا لهذه الصحوة الكمائن ، وحفروا لها الأفخاخ ، واستغلوا سذاجة كثير من قادة الصحوة وأفرادها وحماسهم ، وبُعدهم عن العلم والتأصيل ، وجريهم وراء العاطفة والحكم بغير ضوابطه الشرعية ، فاخترقوهم ، ثم استدرجوهم إلى حبائلهم وهم لا يشعرون ، وأسقطوهم في شراكهم وهم غافلون ، وظانّون أنهم مُحسنون :

فكان ما كان مما لست أذكره فقل خيراً ولا تسأل عن الخبر

ورحم الله من قال :

قد كان ما قد خفت أن يكونا .. إنا إلى الله راجعونا

وما هدفنا من هذا « السبيل » إلا تقديم النصح لهذه الصحوة ، وتحذيرها من مكائد عدّوها ، وتثبيتها على المنهج الصحيح ، وحفظها من الانحراف ، وتنبيهها من مغبّة مخالفة طريق التغيير الشرعية ، ذلك لأن الصحوة لمّا تستفق الاستفاقة الكاملة ، فهي ما تزال تترنح من هول الصدمات ، وتكبوا من كثرة العثرات ، وتعيش بين الفجر الكاذب والصادق

ولكي تصحو الصحوة التامّة ، وتسير على المنهج الرباني المستقيم ، لابد لها بعد تقوى الله ، من الاتباع المنهجي لا الابتداع ، والتثبّت والتبيّن قبل المسير ، وإعمال العقل والبصيرة قبل العاطفة والحماس ، والتأني والتفكر قبل التسرع ، حتى لا يتكرر السقوط في مكرهم ، ولا تندم ولات حين مندم

وبهذا نرد كيد العدو في نحره ، ونسقطه في فخّه

﴿ **ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله** ﴾ [فاطر - ٤٣]

﴿ **والله موهن كيد الكافرين** ﴾ [الأنفال - ١٨] .

﴿ **وما كيد الكافرين إلا في ضلال** ﴾ [غافر - ٢٥]

ولهذا ؛ فإن ذكْر الأمراض ، لا يعني أبداً التيئيس ولا التشميت ... وإلا ؛ كان الله تعالى مشمّتاً الأعداء بنبيه ﷺ وأصحابه ، إذ عاتبه في أكثر من موضع من القرآن ، وذكر مخالفتهم في أحد وحنين ، ولكان رسول الله ﷺ ميئّسا ، إذ كان يكثر من ذِكر الأدواء ، وما سيصيب هذه الأمّة منها

ولذا ؛ فإن غايتنا - إذا ما وصفنا مرضاً ، أو ذكرنا تقصيراً - أمران :

□ الأول : زيادة الثقة باللّه ، وأنّه لا يُخلف الميعاد في نصر المؤمنين ، ولكنّا نحن الذين أخلفنا ... ونحن الذين قصّرنا ... ونحن المرضى !

□ الثاني : معرفة السبب الحقيقي وراء ضعفنا ، كي لا ينزل بنا ما نزل بمن سبقنا ، من الأمم الماضية ، وألا يصيبنا ما أصاب أمتنا الخالية ، في الأندلس وغيرها

وإذا عُرف الداء ، وكان السعي صادقاً لتناول الدواء ، شُفينا - بإذن الله تعالى - من أمراضنا ... وعندئذ ينصرنا اللّه ويمكّننا ، فإنَّ نصره سبحانه ، مشروطٌ بالصحة والعافية : ﴿ **إن تَنصروا الله ينصركم** ﴾ [محمد:٧]

ولا شك أنَّ الأمّة بدأت تصحو من غفوتها ، وتنهض من كبوتها ...

وإذا أردنا لها الثبات والتقدم ، فلا بدّ - إذن - أن تُوَاكب هذه الصحوة ، بإدراك الثغرات وسدّها ، وتشخيص الأدواء ومعالجتها

نعم ... ربما أوجعتُ ... ولكنْ ...

هل نترك المريض لا يتناول الدواء خشية إزعاجه ... ؟؟!!

وهل ندع الجرح بلا خياطة خوفاً من إيلامه ؟؟!!

إنَّ الطَّبيب الصَّادق ... والوالد العاقل ... هو الذي لا ينظر إلى عاطفة .. ولا يلتفت إلى تأثُّر المريض من دواء ... أو تألمه من مِبْضَع جرَّاح ...

إنَّ الطبيب الحازم الصادق ، هو الذي يبقر بطن المورم ، ويقطع يد المجذوم ... ويخيط جرح المجروح ... ولا يلتفت إلى أنين ... ولا يعبأ بصراخ ...

بل كم من طبيب شُتم ، وهو يبتسم ! وكم من جرّاح سُبّ ، وهو ينصح.

هكذا ينبغي أن يكون العلماء والدعاة والمربّون ، وأمّا إذا أعرضنا عن هذا فسيكون شأننا شأن الطبيب المهمل

إذا ما الجرح لُمّ على فساد تبيَّن منه إهمال الطبيب

ولو أنَّنا كنا حازمين - كالطبيب الحازم - في معالجة أمراضنا ، لَمَا أصابنا ما أصابنا ، ولكنْ تركنا المرض يستفحل ، والجرح ينزف ، حتى انتشر في مجتمعاتنا وتوغَّلَ في أَعماقنا ، وأنتن جراحنا.. ثم رحنا نقلّب أكفّنا ندماً ، ونضع أيدينا على خدودنا أسفاً ، وقلنا : ياليت .. ياليت .. نتبادل التلاوم ، ونتقاذف التهم وما أَصدق قول الشاعر :

إذا ما الجرح لُمَّ على فسادٍ تفشّى الداءُ في جوف المريض

وهكذا كان ....

ولو كنا حازمين في قضية أفغانستان - مثلاً - من أول ظهور مرض التفرق ، لما جرت تلك الدماء بينهم ... ولما تأخر [1] نصر اللَّه عنهم

وما زلت لا أدري سبب تأثُّر بعض المسلمين أو حساسيتهم المفرطة إذا ما ذُكرت أمراض المسلمين !

أليسَ هذا هو أسلوب الأنبياء ؟

أليست هذه هي طريقة الأطباء النَّاصحين ؟

ومع ذلك يُصرُّ إخواننا على كتمان أمراضهم ، والتستر عليها ، بل ويظهرونها على غير حقيقتها ، ويخادعون المريض ، ويبالغون في وصفه بالصحة والعافية ..

وكنا دائماً نحذرهم من مغبّة ذلك ... خشية دبّ اليأس في قلوب المسلمين ، إذا ما قُدر لهذا الغطاء أن ينكشف ، ولهذه المبالغة أن تفتضح ... ولم ينفعهم نصحنا إلّا عناداً ، ولم يردّوا علينا إلّا افتراء وبهتاناً ! فهو أسهل طريق لرد الحق وأسرعه !! هدانا اللَّه وإياهم

وظهر - والحمد للَّه - صدقنا ... وصواب منهجنا ... في عاقبة كثير من بلدان المسلمين ، التي ظهرت فيها الأحداث .... !![2]

وأخيراً ؛ فإنَّ المسلم لا يعرف يأساً ... ولا يقبل قنوطاً ...

---

(١) علّق بعض الأفاضل على هذا فقال : هل تأخر أم حُجب ؟
قلت : الصواب : أنَّه تأخّر ، لأنَّ الحجب يعني : أنَّه لا حقَّ لهم في هذا الأمر مطلقاً واللَّه أعلم

(٢) غير أن الإفتراءات مازالت تلاحقنا .. وقد كُتب هذا قبل الاقتتال الدامي بين المسلمين في أفغانستان الذي يحصل الآن في (شعبان ١٤١٤ هـ) أثناء تصحيح تجارب هذا الكتاب .

وليُعلم : أنَّ اللَّه العلي العظيم مع عباده المخلصين الصادقين ، وأنَّه شافٍ عبادَه إنْ هم تناولوا الدواء ، وناصرٌ دينه إنْ هم أدَّوا الشروط والأسباب

﴿ إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا والَّذِينَ هُم مُحسِنُون ﴾ [النحل:١٢٨]

ولكن البلية ممن يخادع المسلمين .. ولا يلتزم ضوابط الشرع في جهاد ولا خبر ، ولا في تهمة ولا حدث ولا في عمل ولا أثر ... وأنى لهم ذلك ! وهم عن العلم ناكبون ، وعن العلماء معرضون .

وإن لم يتبيّن للنَّاس بعد هذه الأَحداث والحقائق الراشدون من الجاهلين بشرع اللَّه المستخفين بعقول المسلمين ، المروجين لأَحداثهم وحزبيَّاتهم بالتمويه والاجترار ، والتضليل بالأَخبار ، والافتراء على الأَبرياء .. إِنْ لم يتبين لهم ذلك .. فليس لنا إلا أن نقول : لا حول ولا قوَّة إِلَّا باللَّه العلي العظيم

﴿ ولَيَنْصُرَنَّ الله مَن يَنصُرُه إنَّ الله لَقَوِيٌّ عزيزٌ ﴾ [الحج:٤٠]

والحمد للَّه ربِّ العالمين .

سرُّ الانحراف .. وسبب الاضطراب ؟!!

« لا شك أن معرفة سر الانحراف ، وأَسباب الاختلاف يساعد في معالجة المرض ... وذلك بتجنب تلك الأَسباب

عرفت الشر لا للشـ ـر لكن لتوقيه
فمن لا يعرف الخير من الشر يقع فيه

فهل لك أَن تبين لنا هذا ؟ وكيف حدث ذلك ؟

لهذه ثلاثة أسرار :

○ **الأول : الجهل بحقيقة هذا الدين** ... وأَنَّه دين إيمان وصدق .. لا دين تَحلٌّ وتَمَنٌّ

وأنه دين علم واتباع .. لا دين فكر وابتداع

وأنه دين عبادة وعمل ... لا دين قول وخطب

إذا عرفت هذا ؛ وتأمّلت أحوال المسلمين أدركت ماعليه كثير منهم من الانحراف عن الفهم الصحيح ، والتقصير في العمل الواجب ... وليس حال كثير من زعماء الجماعات ودعاتهم ، بأحسن حال بكثير من حال المسلمين..

فلقد رأينا كثيراً منهم لم يسمعوا بنصوص يدور عليها محور الاسلام وإذا

سمعوا بها لم يفقهوا معناها .. وإذا أدركوا معناها لم يعملوا بمقتضاها .. مثل حديث : « لا حلف في الاسلام »[1]

قال شيخ الإسلام (٤-٥٨) :

« وهؤلاء - وذكر بعض الفرق - إنما أُتوا من قلة العلم والإيمان ... وقلة اتباع السلف في ذلك »

ولذلك لا تجد لهذا الموضوع - موضوع الاتِّباع - أثراً في خطبهم ولا كتاباتهم ولا منهجهم

نعم ؛ هم يمدحون الصحابة رضوان اللَّه عليهم ؛ ولكن .. لذواتهم ، لا لوجوب اتباعهم

- **السرالثاني : فقدان التأصيل :**

قد سبق الكلام عنه في فصل سوء التربية ، ولكن الذي يشار إليه هاهنا ؛ أنه إذا حلّ الجهل رحل التأصيل وأقام الشيطان يفرخ ويزيّن

- **السر الثالث : تزيين الشيطان :**

لما رأى الشيطانُ جهلَ كثير من الناس بأصول الدين ... وبحقيقة الاتباع ، رغم شهادات بعضهم العالية ... وعمائمهم المستديرة ، وأَصواتهم المبحوحة ، استغلَّ هذا أبشع استغلال ، وراح يلقي لهم بالأدلة المزيّنة ، والحجج المموّهة ، فوافقت ذلك الجهل ... وواطأت ذلك الإعراض عن الاتباع ، فتمكنت من نفوسهم ، وأُشرِبَت بها قلوبُهم ، وظنوا أنها أدلة ، وما هي - واللَّه - بأدلَّةٍ ، على

(١) رواه البخاري (زقم - ٢٢٩٤) ، ومسلم (رقم -٢٥٢٩) .

حدِّ قول الشاعر :

أتاني هواها قبلَ أن أعرفَ الهوى فصادفَ قَلباً خالياً فَتَمَكَّنا

وإذا نكح الجهل دليلاً مزيناً ، أنتجَ غلاماً أشأم ، لا يفرق بين بدعة وسنة وبين صراط اللَّه وسبيل أعدائه !

وهكذا الذين لهم أدلةٌ مزينة ، ينسون الدليلَ الأولَ ، ينسون وجوب الاتباع ، وحرمة الابتداع ، وأن السلف الصالح ، هم أقرب إلى الدين منا ، وأعلم بأصوله ، وأفقه بأحكامه ، وأتقى للَّه ، وأَنصح للأُمَّة

من خداع الشيطان وأَساليبه :

فلا يخدعنَّك الشيطان كما خدع مَن قبلك ؛ فإنَّ الشيطان إذا أتى ابنَ آدم ، لا يأتيه على حقيقته ، ولا يصارحه بمأربه ، ولا يكاشفه بنيّته ، إنما يأتيه كما أتى أباه آدم من قبل .. بثوب الناصح ، ولباس الهادي : ﴿ **قال يا آدم هل أدلُّك على شجرةِ الخلدِ ومُلكٍ لا يبلى** ﴾ [طه:١٢٠]

ولم يكتف بهذا الخداع، بل راح يقسم لهما باللَّه إنَّه لمن الناصحين ، ﴿ **وقاسمهما إني لكما لمن النَّاصحين** ﴾ [الاعراف:٢١]

تماماً كما يُقسم كثير من الناس : أنهم على الحق ! وهم في ضلال بعيد ، ولم ينج بعض أصحاب النَّبي ﷺ من وسوسة هذا اللعين .. فجاءهم في أُحُد ... وما زال بهم حتى جعلهم يتأولون أمر النبي ﷺ ويُخالفونه

ثم جاء مَن بعدهم ، فقال لهم :

« أفلا أدلُّكم على طريق أهدى من طريق أصحاب رسول اللَّه ﷺ ؟

أفلا أدلُّكم على فكرٍ أقومَ من فكر أصحاب رسول اللَّه ﷺ - ومن تبعهم بإحسان ؟

أفلا أدلُّكم على سبيل التمكين في الأرض ، لتصبحوا ملوك الدنيا وسادتها ؟

قالوا : بلى

قال : ابتدعوا ولا تتّبعوا ، وجدّدوا ولا تتمسّكوا ، وتحزّبوا ولا تجتمعوا ، فزمانكم غير زمان أصحاب رسول الله ﷺ ، وظروفكم غير ظروفهم ، فقد ولّى زمانهم ، وانقضى عهدهم ، فهم أصحاب الفكر السطحي ، وحملة الفقه البدوي .. لا علمَ لهم بالمنطق ، ولا بعلم الكلام ، ولا يحملون الشهادات !! وغاية الشيطان من هذا كلّه ، حملهم على مخالفته منهج السلف الصالح في الفهم والعمل والسقوط في الحمأة ليتحقق الاختلاف ، وتدبّ الفوضى ... وقد كان .

لكنْ كيف حدث الخروج عن منهج السلف ؟

« أفهم من هذا ، أن سبب هذا كله : هو الخروج عن منهج السلف في الفهم والعمل » .

نعم ، هذا هو السبب .

« لكن ؛ كيف حدث هذا الخروج ، وتَفشّى هذا الاختلاف المستطير ، والربُّ واحدٌ ، والنبيُّ واحدٌ ، والكتابُ واحدٌ ؟ » ؟!

كان صدر هذه الأمة - كما لا يخفى - أمّة واحدة ، في عقيدتها منهجها

وسلوكها .. ثم لما توسّعت الفتوح الإسلامية ، ودخل الناس في دين اللَّه أفواجاً ، دخل معهم قسمان :

قسمٌ خبيث الطوية ، فاسد النية ، قد أدرك أن لا شيء يدمر الأمم ويهلكها، مثل الاختلاف والتفرق ، والبُعد عن مصدر مقوماتها وعزها :

قال شيخ الإسلام (٣/٣٥١) :

« فأهل البدع ؛ فيهم : المنافق الزنديق ، فهذا كافرٌ ؛ ويكثر مثل هذا في الرافضة والجهمية ، فإنَّ رؤساءهم كانوا منافقين زنادقة ، وأوّل من ابتدع الرفض كان منافقاً ، وكذلك التجهُّم أصله زندقة ونفاق »

ولذلك كان هذا القسم الخبيث حريصاً على صرف الناس عن الفهم الصحيح لهذا الاسلام ، وأن يبقى الكتاب والسنة مجرد نصوص بعيدة عن روحها الأصلي ، ومعناها الصحيح

فاستغلَ هذا القسمُ الخبيثُ حداثةَ الناس في دين اللَّه - وبخاصة الأعاجم - وجهلَهم بأصول الدين وثوابته ، وفقه اللغة العربية وقواعدها ... فبثّ سُمَّه ، ونفث فيهم سحره ... وعرف من أين تؤكل الكتف ... فنشر الفلسفة ، وما يسمّى بعلم الكلام ، وسعى لتفسير كتاب اللَّه وسنة رسوله ﷺ على أساس المنطق ، لا على أساس اتّباع سلف هذه الأمة وعلمائها ، وتوسَّعوا في ذلك ، حتى دخلت قضايا الحكم والسياسة والخروج ، فدبّ بذلك الخلاف ، وانتشر الفساد ، رغم تحذير اللَّه تعالى ورسوله ﷺ من ذلك :

قوله تعالى : ﴿ **فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم**

في شقاق ...﴾ [البقرة -١٣٧]

أي : فإن آمن الناس من اليهود والنصارى وغيرهم ، بمثل الذي آمن به أصحاب النبي ﷺ فقد اهتدوا إلى الصراط المستقيم ، وإن أعرضوا عن فهمهم ومنهجهم ، فسوف يقعون في حمأة الاختلاف ، ويسقطون في مرجل الشقاق .. ثم لا تسأل بعد ذلك عن البلايا والرزايا التي تحل بالأمة ، وإلى الله عاقبة الأمور

وقوله تعالى : ﴿ **فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنَّما يتَّبعونَ أهواءَهم ومن أضلّ ممن اتبع هواه بغير هدى من الله** ﴾ [القصص:٥٠]

ولقد كان رسول الله ﷺ يحذر الأمّة من مغبّة الابتعاد عن الفهم الصحيح للنصوص ، والتجافي عن العمل بها .. ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، فعن عائشة رضي اللَّه عنها قالت : تلا رسول اللَّه : ﴿ **هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آياتٌ محكمات هُنّ أم الكتاب وأُخر متشابهات ، فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلّا الله والرَّاسخون في العلم يقولون آمنا به كلٌّ من عند ربنا وما يذّكر إلّا أولو الألباب** ﴾ [آل عمران:٧] ، قالت : قال رسول اللَّه ﷺ :

« إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه ، فأولئك الذين سمّى اللَّه ، فاحذروهم » [(١)]

وقال ﷺ :

« إنَّ منكم من يقاتل على تأويل هذا القرآن كما قاتلتُ على تنزيله.. » [(٢)]

---

(١) البخاري (١٦٦/٥) ، مسلم (٢٠٥٣/٤) وغيرهما

(٢) أخرجه أحمد (٨٢/٣) وغيره بسند حسن

أي : إنَّ من الصحابة رضوان اللَّه عليهم ، من سيقاتل على المعنى الصحيح للقرآن ، كما قاتل رسول اللَّه على صحة التنزيل ، أي : إنَّ أناساً سيحاولون تحريف معنى الكتاب ، وسيقوم وقتئذٍ من الصحابة من يقاتلهم حتى يَرُدَّهم إلى الفهم الصحيح .

وفي الحديث فائدتان جليلتان :

❑ الأولى : وجوب التصدي للطوائف الضالَّة ، من أهل التأويل والابتداع وردهم إلى المعنى الصحيح ، وسيأتي تفصيل ذلك في الجزء الثالث إن شاء الله تعالى

❑ الثاني : أنَّ المعنى الصحيح للكتاب ، هو : ما ذهب إليه الصحابة رضوان اللَّه عليهم ؛ لأنَّ النَّبي ﷺ أقرّهم على قتال المؤوّلة وردهم إلى الفهم الذي يتبنّاه الصحابة .. فتدبَّر هذا ؛ فهو عزيزٌ .

ثم سلك القسم الثاني من الناس : ممّن حسُنت نيتهم ، وصلح بالجملة حالهم ، سبيل هؤلاء : سبيل عدم وجوب التزام منهج الصحابة رضوان اللَّه عليهم في فهم كتاب اللَّه وسنة رسوله ﷺ ، وتطبيقهم لهما في جميع نواحي الحياة ، فانتهجوا منهجاً جديداً ، واعتزلوا أصحاب رسول اللَّه ﷺ والتابعين ، أرباب العلم والهدى ، بدعاوى عريضة ، ومسوِّغات كثيرة ، كلها باطلة وفاسدة ، ففقدوا بذلك مصدر الفهم الصحيح ،

فحملهم كبرُهم وجهلُهم على الاعتماد على عقولهم ، وأفكارهم ، في فهم هذا الدين ، فضلُّوا وأضلُّوا

ثم خَلَف من بعدهم خُلوفٌ ، ورثت الضلالة باسم الحق ، فقاتلوا دون

باطلهم ، وهم يَحسبون أنهم يُحسنون صنعاً

وكلَّما بَعُدَ العهد .. اتسع الخرقُ على الراقع ، وازداد الانحراف .. كَضِلْعَي الزاوية ، كلما امتدّا ابتعدا

قال تعالى :

﴿ فَخَلف من بَعدهم خَلْف أضاعوا الصَّلاة واتَّبعوا الشَّهواتِ فَسوفَ يَلقَون غيّاً ﴾ [مريم:٥٩]

وقال سبحانه :

﴿ ألم يَأْنِ للَّذينَ آمَنوا أن تَخشعَ قلوبهم لِذِكر الله وما نزلَ من الحقِّ ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأَمَدُ فقستْ قلوبهم وكثيرٌ منهم فاسقون ﴾ [الحديد:١٩]

فعن أبي الدرداء وزياد بن لَبِيد :

أنَّ النَّبي ﷺ ذكر شيئاً وقال : « وذاك عند أوان ذهاب العلم » ، وفي لفظ :

« هذا أوانُ يختلس العلم من الناس حتى لا يقدروا منه على شيء »

فقال زياد بن لبيد : يا رسول اللَّه ! وكيف يُختلس منا ؟ وقد قرأنا القرآن ! فواللَّه لنَقرَأَنَّه ، ولَنُقرِئنّه نساءَنا وأبناءنا !

فقال : « ثكلتك أمك يا زياد ! إن كنت لأعدّك من فقهاء أهل المدينة ، هذه التوراة والانجيل عند اليهود والنصارى فماذا يغني عنهم ؟! » [1]

(١) أخرجه أحمد (٤/٢١٩) و (٦/٢٦) ، والترمذي رقم (٢٦٥٣) وقال : هذا حديث حسن غريب ، وابن ماجه (رقم ٤٠٨٠) ، والحاكم (١/٩٩) وصححه ووافقه الذهبي

وفي رواية :

« أليس اليهود والنصارى فيهم التوراة والانجيل ثم لم ينتفعوا منه بشيء »

وفي هذا الحديث العظيم دلالة صريحة : على أن علة المسلمين ليست فقدان الكتاب والسنة ، ولكنها فقدان الفهم الصحيح لهما ، والعمل الصادق بهما

ومن هذا الباب أيضاً ، ما وردَ أنَّه :

« خلا عمر رضي اللَّه عنه ذات يوم يحدث نفسه ؛ كيف تختلف هذه الأمّة، ونبيها واحد ؟! فأرسل إلى ابن عباس رضي اللَّه عنهما فقال : كيف تختلف هذه الأمَّة ، ونبيها واحد ، وقبلتها واحدة [وكتابها واحد] ؟

قال : فقال ابن عباس : يا أمير المؤمنين ! إنَّما أُنزل علينا القرآن فقرأناه ، وعلمنا فيما أنزل ، وأنَّه سيكون بعدنا أقوام يقرؤون القرآن ، ولا يدرون فيما أُنزل ، فيكون لكل قوم فيه رأي ، فإذا كان لكل قوم فيه رأي ، اختلفوا ، فإذا اختلفوا اقتتلوا .

قال : فزجره عمر ، وانتهره عليٌّ ، فانصرف ابن عباس ، ونظر عمر فيما قال فعرفه ، فأرسل إليه ، وقال : أَعِدْ عَلَيَّ ما قلته فأعاد عليه ، فعرف عمر قوله وأعجبه » [1] .

إذا أدركت هذا ؛ عرفت الأسباب الحقيقية الكامنة وراء أمراضنا ومصائبنا ، وبلايانا ، وأنها كلها ترجع إلى مخالفة سلفنا في الفهم والصدق والعمل

(١) صحيح لغيره ورد من أكثر من طريق : أخرجه سعيد بن منصور في سننه رقم (٤٢) والبيهقي في الشعب (٥/٢٣٠) وأبو عبيد في فضائل القرآن (٤٢) وعبد الرزاق في المصنف (رقم -٢٠٣٦٨)

الطريق ... وحال المعرضين ؟

قد يقول قائلٌ :

« قد تبين لكل منصف أنَّ ما ذكرتَه من الأمراض ودوائها ، هو الحقُّ ... وأنَّه لا ينبغي للمريض أن يعمل عملاً قبل مداواة نفسه ، ولا أدلَّ على هذا من واقعنا المؤلم ... كما تبين بما لا شك فيه : أن نصر هذه الأمة لا يكون إلا باستقامتها .. واستقامتها لا يكون الا بعد معرفة الفهم الصحيح لنصوص دينها .. والعمل الصادق بها وأيقنا بشفاء هذه الأمة ، وتمكينها المرتقب بوعد الله الحق ولكن ...

ما هو الطريق في ذلك .. ؟ وهل هو واضحٌ .. ؟

وهل تَضْمَنُ عدم النزاع فيه ... ؟

وما هي ضوابطه .... ؟ »

وأما وضوح الطريق : فممّا لا ريب فيه عند المسلمين جميعاً - على اختلاف طوائفهم ، وتنوع مشاربهم - أنَّ اللَّه يحب لعباده الهداية ... وأنَّ طريق النجاة من هذه البلايا والأمراض ، والتخلص منها ؛ هي : بداية الهداية ... ولما كانت الهدايةُ محصورةً في كتاب اللَّه عزَّ وجلَّ وما أمر به : ﴿ **ذلك**

الكتاب لا ريبَ فيه هُدى للمتَّقين ﴾ [البقرة:٢]

﴿ قل إنَّ هدى اللهِ هُوَ الهُدى ﴾ [البقرة:١٢٠]

فلا هدى إلّا من عند اللّه .. والهدى هو الطريق

فالطريق إذن موجودٌ في الكتاب ، وهو واضحٌ لا غموض فيه ، وبيّنٌ لا لبسَ فيه ، ومستقيمٌ لا اعوجاج فيه

﴿ وأنَّ هذا صراطي مستقيماً فاتَّبِعوهُ ﴾ [الأنعام:١٥٣]

﴿ قد جاءكم برهان من ربّكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً ﴾ [النساء:١٧٤]

﴿ ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكلُ شيء ﴾ [النحل:٨٩]

ومن معاني ﴿ تبياناً لكل شيء ﴾ أي : تبياناً لطريق الهداية ، وسبيل الرشد ، - وإذن - فمحالٌ أن يُبَين لنا أحكام الطهارة والنجاسة ، وأحكام السواك والخُفّ ، ولا يبين لنا صراطه المستقيم ، ومنهجه القويم ...

وما اختُلف فيه إلّا من بعد الإعراض عنه ...

﴿ وما اختَلف فيه إلّا الَّذين أُوتوه من بعد ما جاءتهم البينات ﴾ [البقرة:٢١٣]

﴿ وإن تطيعوه تَهتَدوا ﴾ [النور:٥٤] يعني : ولا تختلفون

« لكن - يا أخي - هل يخالف في وجوب الرجوع إلى الكتاب والسنة وفهمهما الفهم الصحيح والعمل بهما أحد ..»

نعم يخالف في ذلك كثير ...إما قولاً وإما عملاً ..

فهذه الخلافات ... وهذه الأفكار ... التي تتطاير بها المجلّات ، وتبثها الصحف والنشرات ، عن (المفكرين الإسلاميين) إنما سببها ... جهلُهم بهذه الحقيقة ، حيث ظنوا أننا ملزمون بعبادات الإسلام ، ولسنا ملزمين بطريق الإسلام ! لذلك راحوا يفكرون - مستغنين عن الكتاب والسنة - في طرق العلاج ، وسبل النهوض بهذه الأمة ، وطرق تمكينها ... فابتدعوا لها آراءً ، واخترعوا أفكاراً وطرقاً ، ما أنزل اللّه بها من سلطان ، فمن هنا أُتوا ... فضلُّوا وأضلُّوا ، ثم خُدِع بهم من لا يعرف هذه الحقيقةَ ... حقيقةَ : **وجوب الالتزام ، بطريق الإسلام ، لإقامة الإسلام**

مثال حي :

أثناء إعداد هذا الكتاب ، التقينا في مجلس حَفَل ببعض الأخوة من قادة بعض الجماعات ومُنظّريها .. وبدأْنا نتدارس أَسباب فشل المسلمين ، وسبل النّهوض بهم .. ودار الحديث وطال الكلام ... وازداد يقيني - بعد سماع كلامهم - أَنَّ الأُخوة ليس لديهم قناعة مؤكَّدة بما هم عليه ، بل هم في شك من منهجهم ، واضطراب في تفكيرهم وتصورهم لأحوال المسلمين ومعالجتها .. وليسوا على يقين من وجوب الرجوع إلى الكتاب والسنَّة لمعرفة أَمراض المسلمين .. ولا يعلمون أَنَّ في الكتاب والسنَّة تشخيصها ، وطرق معالجتها .. فقد تكلَّم معظمهم دون ذكر آية أَو حديث .. فشرَّقوا وغرَّبوا ، وقال بعضهم : مشكلة المسلمين تكمن في ضعف اقتصادهم ، وقال آخرون : بل مشكلتهم في تخلفهم الحضاري

وقال كبيرهم : إِنَّ أَمثل حل لحل مشكلات المسلمين .. هو تقليد

الكافرين ..!!؟ فننظر ماذا فعلوا في أَنظمة حكمهم فنفعل .. وماذا عملوا في اقتصادهم فنعمل .. فبهذا استقرت أَوضاعهم وتقدمَّت حضاراتهم »[1]

وكان الجواب يومئذٍ مفصَّلاً ، أَذكر بعضه - الآن - مختصراً :

١ - ليس لنا مثل السوء ..

٢ - لنا في أَبي بكر وعمر .. غنية عن جورج وتاتشر

٣ - أيعقل أن يكون في الكتاب والسنَّة ومنهج السَّلف : آداب التخلّي (أحكام دخول الخلاء) ، وليس فيه سبيل التمكين في الأرض وطرق الحكم ، وأحكام الاقتصاد ، وأسباب الضعف ، وسُبُل العلاج

٤ - من العار والسذاجة ، بل من الإيمان ببعض الدين والكفر ببعضه !أَن نأْخذ أَحكام الغائط والبول من الدين الإِسلامي .. وأَحكام السياسة والخلافة من أَعدائه ..

٥ - إِنَّ الذين .. يدْعون إِلى هذا .. ينسبون النَّقص إِلى الإِسلام وهم لا يشعرون ، ويفعلون فعل العلمانيين وهم لا يعلمون ..

وهؤلاء الإخوة : من قادة الجماعات الإسلامية .. لا يدرون ، ولا يدرون أنهم لا يدرون .. ولذلك يفتون ، ويدفعون الشباب الى السقوط في الأفخاخ وهم لا يشعرون .. فإنا للَّه وإنا اليه راجعون

---

(١) علق بعض الأفاضل على هذا قائلاً «لا يقول هذا قادة اسلاميّون أبداً ، وإنما قادة يدّعون الاسلام » فلما ذكرت له أسماء لامعة ، ورموزاً ساطعة ... استرجع

وقد غفل هؤلاء الإخوة عن أنَّ لازمَ كلِّ أَمْرٍ أَمَرَ اللَّهُ به ، أو نهى عنه :

● أَنْ يُبيّن لنا كيفية هذا الأمر ... ولم يتركه لعقولنا وتجاربنا ولا أن نأخذه من أعدائه سبحانه وأعدائنا ؟

● الثاني : إمكانية فعله ، أو الانتهاء عنه

وأما سؤالك :

« هل تَضْمَنُ عدم النزاع فيه ؟ »

فليس هذا من واجب الدعاة ، وإنما واجبهُم أن يبيِّنوا الحق الذي أُمروا به ... أمّا أن يتنازع الناس أو لا يتنازعوا .. فهذا أمرٌ آخر ؛ وذلك لاختلاف الناس في دينهم ونياتهم ، وعلمهم وفهمهم ، وإرادة الله في ابتلائهم ... واللَّه وحده هو حسيبهم

ما هو مصير المتفرقين :

« قبل أن تبيّن لنا ، الخطوات العمليّة للرجوع إلىالفهم الصحيح للدين ، لنا سؤال : ما حُكمُ هذا الاختلاف ... وهل يلزم منه الضلال في الدنيا ، والعذاب في الآخرة وهم من أمّة محمد ﷺ ومجتهدون .. » :

ليس لي ولا لغيري الحكم بعد حكم رسول اللَّه ﷺ في ذلك ... وهو حُكْم يرتجف له كل قلب صادق ، وترتعد منه كل نفس مؤمنة :

قال ﷺ : « ... وأنَّ هذه الأمّة ستفترق على ثلاث وسبعين ملَّة - يعني الأهواء - كلها في النار إلّا واحدة » [1] فيا هول هذا الحكم !!

(١) أحمد(٤/١٠٢) ، والدارمي (٢/٣١٤) ، وصححه شيخنا في « صحيح الجامع »

« ... في النار » رغم عبادتهم !

« ... في النار » رغم جهادهم !

« ... في النار » رغم دعوتهم !

« ... في النار » رغم نصرتهم للإسلام ! ودفاعهم عن المسلمين !.

فلا حول ولا قوَّة إلّا باللَّه ... من أناس يضيعون أوقاتهم ، ويبذلون مالهم ، ويلهثون هنا وهناك ، وهم في النار ...

هل الاثنتان والسَّبعون فرقة ، مسلمون ام كافرون ؟ :

« لكنْ ، هل قصد رسول اللَّه ﷺ بقوله : « ... في النار » المسلمين ، أم الطوائف الأخرى الكافرة ، التي خرجت من الإسلام ، أو ليست من الإسلام » ؟!

لا شك أنَّ الذين قصدهم رسول اللَّه هم المسلمون المخالفون للطائفة الأم ، لأنَّه ﷺ أثبت لهم الإسلام بالجملة بقوله ﷺ : « تفترق أمتي ... » أي : أمة الإجابة ، وهم مسلمون بشهادة رسول اللَّه ﷺ لهم

قال شيخ الإسلام نقلاً عن طائفة من الأئمّة :

« إنَّ الجهمية كفَّارٌ لا يدخلون في الاثنتين والسبعين فرقة كما لا يدخل فيهم المنافقون ... وهم الزنادقة ... » [1]

ثمَّ قال : « ومن أهل البدع من يكون فيه إيمان باطناً وظاهراً ، لكن فيه جهل وظلم ... فهذا ليس بكافر ولا منافق » [2]

(١) « مجموع الفتاوى » (٣/٣٥١)

(٢) « مجموع الفتاوى » (٣/٣٥٣)

وقال المناوي [1]:

« وتفترق أمتي ... » في الأصول الدينية لا الفروع الفقهية ... وأراد بالأمة ، من تجمعهم دائرة الدعوة من أهل القبلة »

« إذن ... أهل الافتراق الذين حكم عليهم رسول اللَّه ﷺ بالنار ... هم مسلمون !! ويصلون ويصومون ويحجون !! » نعم ؛ ويرفعون راية الإسلام ويجاهدون ! ويحبون نصر الإسلام والمسلمين ، ولكنَّهم بطريق رسول اللَّه ﷺ وصحابته في الدعوة والتمكين ونصر الإسلام لا يلتزمون !!

هل أَنت من الطائفة النَّاجية ؟ :

« واللَّه إنَّه لأمر خطير وجَلَلٌ ، أن لا يعرف المسلم - بعد سنين من صلاته وعبادته وجهاده ، ونصره للإسلام والمسلمين - أنَّه من الطائفة المنصورة ، أو من الطوائف المخذولة ، أهو في طريق الجنة ، أم في طريق النار ؟ »

نعم ؛ إن كثيراً من المسلمين غافلون عن هذا ... فهم يظنون أن مجرد حُسن نيتهم ، وإيمانهم وصلاتهم وجهادهم ، يعني هذا أنهم من الطائفة المنصورة ويغنيهم عن النظر في منهجهم

والخطورة تكمن - أيضاً - في النسبة العدديّة بين الفريقين ؛ فهي عالية جداً ... طائفة واحدة ناجية .. واثنتان وسبعون هالكة

- « إذن كيف أعرف نفسي ، أمن الطائفة المنصورة أنا ، أم من الطوائف الضالة ، وكل طائفة تدعي أنها الطائفة المنصورة ، وكلهم يتجاذبون الناس ، وبخاصة الشباب ؟!

(١) « فيض القدير » (٢/٢٠)

وكـلٌّ يـدّعـي وصـلاً بـلـيـلـى ولـيـلـى لا تـقـرُّ لـهـم بـذاكـا

وكلهم يذكر أدلة ... وأنا رجل ليس عندي من العلم ما يمكنني من التمييز بين الأدلة ، ولا عندي اطّلاع واسع على عقائد الفرق الضالة ، ولا على أفكارهم ، وإني أخاف أن أسقط في دائرتهم - وأنا لا أدري - فأسقط في النار كما أخبر الرسول ﷺ

فهل لكم أن تبيّنوا لنا - بياناً شافياً - كيفية التمييز بينها ؟ وما هي الضوابط والمعالم لمثلي ... حتى لا يقع في أمر لا يحبه ؟ ولا يحب أن يكون إلّا في الطائفة المنصورة ، بعد أن أصبحنا - واللّه - في حيرة كبيرة »

إن ما ذكرتَه من واقع المسلمين الحالي والسالف ، هو الحقُّ ، بل هو عين الحق ، وإن جميع الطوائف الإسلامية ، والجماعات المعاصرة ، عندهم من الأدلة ما أَقنعَهَم بطريقهم ، ولديهم من الحجج ما حَمَلَهم على ترك الاتباع ، وسلوك سبيل جديد !!

فالخوارج ؛ لهم أدلتهم التي أقنعتهم وأقنعت كثيراً ممن تبعهم ... وما يزال كثير من الناس مغرورين بأدلتهم ، حتى زماننا هذا ...

والمعتزلة ؛ لهم من حججهم ما دفعهم إلى مخالفة هدي الصحابة في العقيدة والمنهاج ، وتحكيم عقلهم في دين اللّه ، وما يزال كثير من الناس مخدوعين بحججهم - ولو بطريقةٍ غير مباشرةٍ - حتى زماننا هذا ...

وكذلك الشيعةُ والصوفية ...

وكذلك كثيرٌ من الجماعات الإسلامية المعاصرة ، لديهم ما أقنعهم وأقنع

جماهيرهم بعدم وجوب اتباع الصحابة ! بأدلة مزعومة كثيرة ، ودعاوى كثيرة : مصلحة الدعوة (!) زماننا غير زمانهم (!) الغاية تبرِّر الوسيلة (!) هذه وسائل وليست غايات (!) نحن نبني والحكام يهدمون (!)

... إلى غير ذلك مما يحسبونه أدلة يموهون به على أنفسهم وعلى الشباب الصادقين

قال الشاطبي :

« كل خارج عن السنة ممن يدعي الدخول فيها ، والكون من أهلها ، لا بد له من تكلُّفٍ في الاستدلال بأدلتها عن خصوصات مسائلهم ... بل كل مبتدع من هذه الأمة ... يدعي أنَّه هو صاحب السنة ... » [1]

فإلى علاج هذه الأمراض ، وإلى بداية الهداية ..

---

(١) « الاعتصام » (١/٢٢٠)

عـــواصـــم بين يـــدي العـــلاج

العاصم الأول : التفكير في النجاة قبل كل شيء :

يجدر قبل الخوض في حيثيات العلاج أن يُقدم بعض التنبيهات والعواصم الواقية من الزلل ، والمعينة على سلوك الطريق ، ومعالجة الأدواء ومنها :

إنَّ العاقل هو الذي يفكر قبل كل شيء ، بنجاة نفسه يوم القيامة ، وذلك قبل أن يفكر بجهادٍ ، أو حُكمٍ ، أو دعوةٍ

وقبل أن يفكر في غيره من حُكّام ، ودعاة ، وعلماء ، و .. و .. وقبل أن يفكر بمن فسق أَو فجر ، ومن ابتدع أو أشرك ، ومن كفر أو ارتد ، وقبل أن ينصب نفسه قاضياً على النَّاس ، ومحاسباً لهم فَيُفَسّق هذا ! ويُكفِّر ذاك !

قال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضلّ إذا اهتديتم** ﴾[1] [المائدة - ١٠٥]

وقال تعالى :

﴿ **فلا تذهب نفسُك عليهم حَسَرات** ﴾ [فاطر:٨]

---

(١) ولا يعني هذا ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فهذا شي ، وذاك شيء آخر - راجع تفسير ابن كثير عند هذ الآية (١١٢/٢)

وقال تعالى : ﴿ **فلعلك باخعٌ نفسَك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً** ﴾ [الكهف:٦]

أي : لعلك مهلكٌ نفسك أسفاً عليهم لعدم إيمانهم

وفي عَرَصات يوم القيامة .. في ذلك الموقف الرهيب ، والمقام المهيب ، يكون شعار الناس جميعاً وفي مقدمتهم الأنبياء : « نفسي نفسي » (١)

إلّا رسول الله ﷺ الذي يشفع للخلائق يومئذ

ولا يفهم متسرع أن لا يُحكم على من تبيّن كفره أو فسقه أو ابتداعه ، لا ؛ ولكن لا يجوز أن يكون هذا هو الشغلَ الشاغلَ للناشئين ، وأن لا يَحكم - على ذلك - من ليس أهلاً لذلك ، من حُدَثاء الأسنان ، قليلي العلم ، عديمي الخبرة ، قد أشغلهم تبديع النَّاس وتفسيقهم ، عن أنفسهم ، في طلب العلم ، وحسن الخُلُق .

وهذه المسألة قد غفل عنها كثير من دعاتنا اليوم - وبخاصة الشباب - فتجد الدَّاعية يتحدث عن الحُكام ، وعن الجهاد ، وعن الكفار ، وعن الأمم المتحدة ، وكأنَّه سَيُحاسَب عنهم جميعهم ، في الوقت الذي يهمل فيه نفسه ، ويهمل فيه تربية من حوله ، ولا يفكر بنجاته ولانجاتهم ، ولا عاقبة أمرهم ، ولا يفكر بصواب ما يدعو إليه !

قال تعالى : ﴿ **أتأمرون النَّاس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون** ﴾ [البقرة:٤٤]

وكثيراً ما تجد بعض هؤلاء ؛ يرتكب الواحد منهم المخالفات بل الكبائر ،

---

(١) انظر البخاري (٣٣٦١)

ويدعو إلى أمور ما أنزل اللَّه بها من سلطان ، ويحسب أنَّه على شيء وهو - واللَّه - ليس على شيء ، قد خدع النَّاس بعباراته ، وغررهم ببعض مواقفه ، يتكلَّم السَّاعات مؤصلاً ومقعّداً ، بلا آية ولا حديث ، منشغلاً بأحداث لا يقدم فيها كلامه شيئا ولا يؤخر ، سوى ضياع الأوقات ، وهدر الطاقات

وقد نصح سيد قطب هؤلاء « أن لا تستغرقهم الأحداث السياسية » وأن يهتموا بـ « تربية من يَقبَل هذه الدعوة »[1]

قال تعالى :﴿ **قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التَّوراة** ﴾ [المائدة:٦٨]

ومقتضى ذلك ولازمه :

يا أهل الإسلام لستم على شيء حتى تقيموا القرآن ، ولا تتم إقامته إلا باقامة السنة ، ولا تصح إقامته وإقامة السنة إلا كما أمر على منهج سلف هذه الأمّة

وفيه العقيدة والواجبات ، والسنن والمندوبات ، وفيه الأخوَّة والجهاد ، والسياسة الشرعية ، والخلق الحسن

وعلى هذا ؛ من لم يقم الكتاب والسنة على منهج سلف الأمّة ، لم يقم القرآن

ثم إنَّ التفكير بالنَّجاة ، ومعرفة طريق الهداية ، وسلوكه - فضلاً عن كون ذلك فيه خير عظيم لصاحبه - فهو عاملٌ مهمٌّ من عوامل توحيد المسلمين ، واستقامة حالهم ، وفلاح أمرهم في الدنيا والآخرة

وإنما تستقيم حالة الأمة ، باستقامة أفرادها

---

(١) لماذا أعدموني (٤٣)

وتنجو الأمة ، بنجاة أفرادها .

قال ﷺ : « إذا قال الرجل : هلك الناس ؛ فهو أهلكهم »[(١)].

وإذا أراد اللّه يقظة أمة   أوحى إليها يقظة الأفراد

وفي التفكير في النّجاة - كذلك - هدايةٌ للنفس ، وتهذيبٌ للأخلاق ، فإنَّ الذي يفكر في عذاب اللَّه ونعيمه ، وأنَّه خُلق لعبادته ثم الفوز والنّجاة ، تستقيم - في الجملة - حاله ، وتلين طباعه ، وتذل لإخوانه نفسه ، وفي هذا من الخير ما لا يعلمه إلّا اللَّه تعالى ..

من علامات العاقل :

ومن علامات العاقل : أن يتبين الطريق قبل السّلوك ، وأن يتعرف على السّبيل قبل الولوج ، وأن يضيء المصباح قبل الدلوج[(٢)].

وأما أن يسلك سبيلاً ما ، أو يتبع طريقةً ما ، ثم يقنع نفسه بصحتها ، ثم يجمع الأدلة على صحة ذلك ، فهذا هو الخطأ الكبير الذي يرتكبه معظم النَّاس ، - وللأسفِ - وكلنا ذاك الرجل ، إلّا من هدى اللَّه ، فهلّا سأل عن صفات الطائفة المنصورة قبل انتسابه إلى تلك الجماعة ؟! وهلّا عرف أصول الطائفة الناجية قبل دفاعه عن هذه الجماعة أو تلك ؟!

وإذا كان كل واحد منا يعتقد أنَّه من الطائفة المنصورة ، فأين إذن طوائف الضلال ؟!

---

(١) أخرجه مسلم (٤/٢٠٢٤) وغيره ، وأهلكهم : بالضم والفتح ؛ أما الضم فمعناها : هو أهلكُ واحد فيهم ، وبالفتح ، فمعناها : هو الذي جعلهم بكلامه هلكى وليسوا كذلك

(٢) الدلوج : السير أول الليل .

العاصم الثاني : حسن النيّة لا يغني عن الاستقامة والاتباع ، ولا يكفي للتوفيق والفلاح :

كثيرٌ أولئك الذين يحتجون على أعمالهم ، أو أعمال غيرهم ، بحسن نياتهم ، يقولون : إنَّ نياتنا حسنة ، وما أردنا إلّا الخير ! وإذا نوقش في دعوة زعيمه ، أو رئيسه ، أو مُرشده ، أجاب على الفور : هل تشك في نيته ؟! إنَّه حسن النية ! لم يُرِد إلّا خيراً !

وقد خفي على هؤلاء ،

أولاً : أن حسن النية محلها القلب ولا يعلمها إلا علام الغيوب فكيف يقولون ما يقولون

ثانياً : هب أننا عرفنا حسن نيته ، فهل أمرنا في الكتاب والسنة باتباع أصحاب النيات الحسنة ، أم أمرنا باتباع الرسول ﷺ وما قام عليه الدليل ، وهل في الكتاب والسنة أن حسن النية يكون دليلاً

ثالثاً : إن حسن نية المرء ، أو رغبته في الخير ، وبذله الجهد ، لا يغنيه ذلك من الحق شيئاً أبداً ، حتى يكون صاحبه على الصراط المستقيم ، ولا يكون على الصراط المستقيم ، بمجرّد الفكر والرأي ، وإنَّما يكون باتباع طريق الطائفة الناجية التي بيّنها اللَّه عزَّ وجل في كتابه ، ووضحها رسول اللَّه ﷺ في سنته ، وسلكها سلفنا الصالح في طريقهم

قال تعالى : ﴿ **فَاستَقِم كما أُمِرتَ** ﴾ [هود:١١٢]

ولم يقل : كما فكّرت ، ورغبت ، واقتنعت

وقال تعالى : ﴿ فمن كان يرجو لقاءَ ربِّه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربِّه أحداً﴾ [الكهف:١١٠]

والعمل الصالح : هو الذي قام عليه الدليل من الكتاب والسنة ، وفعل سلف هذه الأمة

وليس العمل الصالح : ما رأيتَه - في نفسك - صالحاً ... أوما أقنعك غيرك بأنَّه صالح

قال تعالى :

﴿ قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً الَّذينَ ضلَّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنَّهم يحسنون صنعاً ﴾ [الكهف:١٠٣]

ففي هذه الآية ؛ إشارةٌ عظيمةٌ إلى خُسران المرء رغم حسن نيته **﴿ وهم يحسبون أنَّهم يحسنون صنعاً ﴾** إذا لم يُصب الطريق ، فأي خسارة أعظم من هذه الخسارة ؟!

وعلى هذا ؛ فقد يصلي بعضهم ويُزكي ، ويدعو ويجاهد ، ويُسجن ويُعذب ، وهو يظن أنَّه يحسن صنعاً ، في الوقت الذي هو في ضلال عقدي ، أو انحراف منهجي ، قد يفسد عليه عمله ، ويحبط أجره ، ذلك ؛ لأنه لم يسلك السبيل الصحيح ، سبيل النبي ﷺ وصحبه رضي الله عنهم ، في عبادته ودعوته ، وجهاده وتضحيته

قال تعالى :

﴿ أفمن زُيِّن له سوء عمله فرآه حسناً فإنَّ الله يضلُّ من يشاء ... ﴾ الآية [فاطر:٨]

ففيها إشارة : إلى أنَّه لا يكفي حسن النيّة ليصبح العمل حسناً

ولهذا قال سفيان : « لا يستقيم قول إلّا بعمل ، ولا قول وعمل إلّا بنية ،

ولا قول ولا عمل ولا نية إلّا موافقاً للسنة »[1]

وقال الفُضيل بن عياض في قوله سبحانه : ﴿ **ليبلوكم أيكم أحسن عملاً** ﴾ قال : أخلصه وأصوبه ، قالوا : يا أبا علي ، ما أخلصه وأصوبه ؟

قال : إنَّ العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل ، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل ، حتى يكون خالصاً صواباً ، والخالص أن يكون للّه ، **والصواب** أن يكون على **سنَّة** رسول اللّه ﷺ .[2]

ولعل هذا الأمر ، هو سرّ تكرارنا في صلاتنا وغيرها في اليوم مرات : ﴿ **اهدنا الصِّراط المستقيم** ﴾ ولم يقل : اهدنا إلى النيَّة الصالحة !

نعم ؛ من الصراط المستقيم النية الصالحة ، لكن اللّه بيّن المقصود من الصراط المستقيم بقوله تعالى : ﴿ **صراطَ الذين أنعمتَ عليهم** ﴾ وهو صواب الطريق ، مع حسن النية ، ولا يفترقان إلّا ويكون صاحبهما في الضلالة

أعاذنا اللّه وإياكم من ذلك

النيَّة الصالحة لا تعفي من دخول النَّار :

والمتأمّل في كثير من أتباع الطوائف الضالّة يترجح عنده أنهم كانوا من أصحاب النيّات الصالحة ، ومع ذلك فقد حكم عليهم رسول اللّه ﷺ أنَّهم في النَّار ، ذلك لأنهم قدموا فهمهم على فهم سلفهم ، فضلوا وأضلوا

ويذكرنا هذا بما كان عليه كثير من الخوارج من صدق النيّة والعزيمة على ما يفعلون ، وكثرة العبادة ، ومع ذلك قال رسول اللّه ﷺ : « الخوارج كلاب

(١) « الاعتصام » (٨٤) ، و « الأمر بالاتباع » (٥٠)

(١) انظر « مجموعة الفتاوى » (١٠/١٧٣-١٧٤)

النَّار » [1]

وإليك هذه الحادثة التي فيها عبرة لأولي الأبصار :

لقي نفرٌ من الخوارج عبدَاللَّه بن خبّاب صاحب رسول اللَّه ﷺ فقالوا له : أنت عبداللَّه بن خبّاب صاحب رسول اللَّه ؟ قال : نعم ، قالوا : حدثنا بحديث سمعته من أبيك ، قال : سمعت أبي يحدث عن رسول اللَّه ﷺ أنَّه ذكر فتنةً القاعدُ فيها خيرٌ من القائم ... الحديث » ثمَّ ساقوه وزوجته الحامل إلى القتل

وبينما هو يسير معهم ، إذ لقوا خنزيراً لبعض أهل الذمّة ، فضربه بعضهم فشق جلده ، فقال له آخر : لمَ فعلت هذا وهو لذمي ؟ فذهب إلى ذلك الذمي فاستحلَّه وأرضاه ، وبينما هو معهم ، إذ سقطت تمرة من نخلة ، فأخذها أحدهم فألقاها في فمه ، فقال له آخر : بغير إذن ولا ثمن ، فألقاها ، ومع هذا قدّموا عبداللَّه بن خباب فذبحوه ، وجاؤوا إلى امرأته ، فقالت : إني حبلى ، ألا تتقون اللَّه ؟ فذبحوها وبقروا بطنها وذلك لأنهم يعتقدون كفر من لم يكن معهم [1]

ياللويل :

فيا للويل .. من حسن نية وعمل بلا علم

ويا للشؤْم .. من حماسةٍ بِلا اتِّباع

ويا للثبور .. من حفظ ثم فتوى بلا فَهْم

نعوذ باللَّه من فقه حُدَثاءِ الأسنان - إن كان عندهم فقه - ؛ الذيـــن

---

(١) رواه أحمد (٤/٣٥٥) وغيره ، وصححه شيخنا الألباني في « صحيح الجامع » (٣٣٤٧).

(٢) أخرجها أحمد (٥/١١٠) والطبراني في « الكبير » (رقم ٣٦٢٨ ، ٣٦٢٩ ، ٣٦٣٠) ، من طرق عن رجل من عبد قيس ، وكان من الخوارج وقتئذ ... ولم يذكرا الخنزير والتمرة وساقها ابن كثير في « البداية » بتمامها (٧/٢٨٨)

يستبيحون أعراض المسلمين ودماءهم[1] باسم جهاد الطواغيت ومجتمعاتهم ، أو بدعوى التبديع ، والتحذير من المبتدعين ، معرضين عن الراسخين في العلم .. وهم يظنون أنَّهم أهدى منهم سبيلاً ، وأَحسن منهم صُنعاً !!

وقال ابن مسعود لقوم احتجوا على بدعتهم بحسن نيتهم فقالوا : واللَّه ما أردنا بهذا إلّا الخير ، قال : « وكم من مريد للخير لن يصيبه »[2]

بل هذا رسول اللَّه ﷺ أحسن الخليقة نية ، وأصدقهم لساناً وقلباً ، وأرجحهم عقلاً ونظراً ، ومع ذلك كلّه ، لم يصب عليه الصَّلاةُ والسَّلام في اجتهاده في حكمه في أُسارى بدر ، ولا في إذنه للمنافقين بترك الجهاد ﴿ **عفا اللهُ عنكَ لِمَ أذِنتَ لهُم** ﴾ [التوبة:٤٣]

ومن هذا نخلص إلى القاعدة التالية :

إنَّ حسن النية ، ليس دليلاً على الصواب ولا برهاناً على الحق .

فتدبَّر هذا فإنَّه نافع ، واحذر - بعد ذلك - أن تحتجَّ بحسن نيتك ، أو حسن نية صاحب القول - أو العمل - على صواب ما ذُهب إليه ، فليس لازمُ حسن النية الصوابَ

(١) من غريب ما وقع - أثناء تصحيح التجربة لهذا الكتاب - أَنْ قام مجموعة من الشباب المسلم بهجوم مسلح على مسجد إخواننا أَنصار السنَّة - حفظهم الله - بالسودان ، عقب صلاة الجمعة ، فجرحوا وقتلوا خلقاً كثيراً .. ثمَّ قبض عليهم فتبين أَنَّهم من هؤلاء الذين اعتزلوا العلماء أَوَّلاً .. ثمَّ المجتمع ثانياً .. ثمَّ أَفتوا أَنفسهم ، بتكفير النَّاس .. ومن ثَم استباحوا مال من كفروه وعرضه ودمه .. ثم بعد هذا بسنة ، جرى خطفٌ لنساء المؤمنين في بعض البلدان ، من قبل بعض من يزعم رفع علم الجهاد بحجة أنهن سبايا ، لأنهن يعشن في مجتمع جاهلي ، وإلى اللَّه وحده ترجع الأُمور وإليه المشتكى ممن شوّه الاسلام باسم الاسلام

(٢) أخرجه الدارمي (١/٧٩ و ٨٠)

العاصم الثالث : التفريق بين البيِّنة والتزيين :

إنَّ معرفة هذا العاصم والعمل به ، من أهم العوامل للحفظ من الانزلاق، والعصمة من الانحراف ، بل ربما يكون أهمها على الإطلاق ، لأنَّ عدم التفريق بينهما كان سبب ضلال كثير من الأمم ، من اليهود والنصارى وغيرهم

ولأنَّ الخلط وعدم التمييز بينهما ، كان سبب انحراف الطوائف عن الجماعة الأم ؛ أهل السنة والجماعة

﴿ **تاللهِ لَقد أرسلنا إلى أُممٍ من قبلك فزيَّن لهم الشيطان أعمالهم** ﴾ [النحل:٦٣]

فالبينة : هي الدليل ، والبرهان ، والحجة التي يُميز بها الخطأ من الصواب ، والحق من الباطل

والتزيين : هو ما يخيل للناظر أنَّه دليل ، وليس بدليل ، وهو بمنزلة السراب ﴿ **يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءَه لم يجده شيئاً** ﴾ [النور:٢٤]

واعلم أن التزيين يكون من الرحمن ابتلاءً واختباراً ، ﴿ **زيِّن للناس حب الشهوات ....**﴾ الآية [آل عمران - ١٤] ، ﴿ **إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا**﴾ [الكهف - ٧] ، وقد يكون استدراجاً وعقوبة : ﴿ **إنَّ الذين لا يؤمنون بالآخرة زَيَّنَّا لهم أعمالهم** ﴾ [النحل:٢٧]

ويكون من الشيطان استدراجاً وإضلالاً :

﴿ **وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون** ﴾ [النمل:٢٤]

وبين الدليل والتزيين ، مرتبةٌ دقيقةٌ ، لا يُدركها كثير من الناس ، ألا وهي :

القرينة : التي اشتبه أمرها على كثير من الناس ، فجعلوها دليلاً ، فأحلُّوا بها الحرام ، وحرَّموا بها الحلال ، واتَّهموا بها الأبرياء .[1]

ولو كانت القرينة دليلاً ، لكان يوسف عليه الصَّلاة والسَّلام زانياً - وحاشاهُ- بقرينة تمزّق ثوبه .. ولكانت عائشة رضي اللَّه عنها زانية - وحاشاها - بقرينة وجودها في خلوة مع رجل .. وهذا هو ما فعله المنافقون ، يتهمون الأبرياء بالقرائن لو ما ... لو كان .. فحذارِ أن تكون منهم .

ومعظم أدلة أهل زماننا قرائن

فقرينة ظلم بعض الحكام للمسلمين وتعذيبهم في السجون ، جعلها بعضهم دليلاً على كُفرهم وردّ العالم لهذه الشّبهة ، جعلوه دليلاً على عمالته !

دليل هذا العاصم :

أصل هذا العاصم قوله تعالى :

﴿ أَفَمَن كانَ عَلى بيِّنَةٍ من ربِّه كَمَن زُيِّنَ لهُ سوءُ عمله واتَّبعوا أهواءهم ﴾

[محمد:١٤]

ففي قوله تعالى : ﴿ من ربِّه ﴾ : تقييد وتمييز ، وأن البيّنة لا تكون إلّا من اللَّه ، وأما التزيين : فيكون مصدره الرأي والاستحسان ، والمصلحة والظروف ، والحزبية والواقع... وهذا هو الهوى وخطوات الشيطان اذا خولف بها الشرع .

وهذا هو الفارق الواضح بين البينة والتزيين

(١) عاملهم اللَّه بعدله في الدنيا والآخرة ، بما يؤذون الأبرياء بغير ما اكتسبوا ، بقرائن تزيينيّة ، كادوا يُكَفّرون بها عباد اللَّه في مسائل كثيرة ، وبخاصة فيما يخص الولاء والبراء

قال ابن كثير عند تفسير هذه الآية :

﴿ أفمن كان على بينة من ربه ...﴾

« أي على بصيرة ويقين في أمر الله ودينه بما أنزل الله في كتابه من الهدى والعلم ، وبما جبله الله عليه من الفطرة السليمة ﴿ كمن زين له سوء عمله واتبعوا أهواءهم ﴾ أي ليس هذا كهذا »

أي ليس الذي يتبع البينة مما أنزل الله في كتابه ، وسنة رسول الله ﷺ بهديه ، كمن يتّبع التزيين من الطرق المحدثة ، والأفكار المزخرفة التي سقطت فيها طوائف الإسلام المخطئة والضَّالة ، الغابرة منها والمعاصرة ، فكان سبب انحرافهم وضلالهم

قال سيد قطب - رحمه اللَّه - عند تفسير هذه الآية (٦/٣٢٩١) :

« فهذا الفارق الأصيل في الحال التي عليها الفريقان ، وفي المنهج والسلوك سواء ، فالذين آمنوا على بينة من ربهم ، رأوا الحق فعرفوه ، واستيقنوا من مصدره ، واتصلوا بربهم ، فتلقّوا عنه ، وهم على يقين مما يتلقّون ، غير مخدوعين ولا مضلَّلين ، والذين كفروا زيّن لهم سوء عملهم ، **فرأوه حسناً وهو سيِّيء** ، ولم يروا ، ولم يستيقنوا ، **﴿ واتَّبعوا أهواءَهم ﴾** [محمد:١٤] ، بلا ضابط يرجعون إليه ، ولا أصل يقيسون عليه ، ولا نور يكشف لهم الحق من الباطل .

أهؤلاء كهؤلاء ؟ إنَّهم يختلفون حالاً ومنهجاً واتجاهاً ، فلا يمكن أن يتفقوا ميزاناً ولا جزاءً ولا مصيراً » ا.هـ.

وإذا تأملتَ هذا - تَأَمُّل المنصف - عرفت من هم على الحق .. آلذين

يدعون إلى الرجوع إلى الكتاب والسنة وعلى منهج السلف ؟

أم الذين يتخبطون خبط عشواء ؟! وهم في كل وادٍ يهيمون ؟!

لفتة دقيقة :

وفي لفظة التزيين لفتةٌ دقيقةٌ ، وهي : أن المزيَّن له ، ربما يكون حسن النية، قد خُيّل إليه أن عمله حسن : ﴿ **أفمَن زُيِّنَ لهُ سوءُ عملهِ فَرآهُ حَسناً** ﴾ [فاطر:٨] ، ولا يتعمَّد اتِّباع السوء ، ولا أدلَّ على ذلك : مما كان عليه عامة الخوارج والمعتزلة ، وغيرهم من الذين كانوا يقاتلون فيَقتلون أو يُقتلون ... دفاعاً عما يرونه حقّاً ، وهو باطل محض

أَمثلة من التزيين :

ومن أمثلة التزيين : ما قاله المشركون عندما حرَّم اللَّه سبحانه الربا ، قالوا : ﴿ **إنَّما البيعُ مثل الرِّبا** ﴾ [البقرة:٢٧٥] ، وهذا تزيين من الشيطان للكفّار ، بأنَّ علَّة الرِّبا ، ترجع إلى علَّة البيع ، وهو : الكسب والربح ... فلماذا التحريم ما داما قد اشتركا في العلّة ؟!

وقال المؤمنون : سمعنا وأطعنا

فأي الفريقين أحق بالأمن ؟

وقال المعاصرون : لا غنى لنا عن الربا ، فهو عصب التجارة المعاصرة ، وبنية الاقتصاد

وقال المؤمنون : ﴿ **وَلو أنَّهم قالوا سَمِعنا وأَطَعنا واسْمَع وانْظُرنا لكان خيراً لهم** ﴾ [النساء:٤٦]

فإنَّ اللَّه هو الذي بيده تجارات العباد ، وهو الذي يبني الاقتصاد ويُخَرِّبُه ، وهو الذي يُربّح من يشاء ، ويُخسّر من يشاء .

ومن أمثلة التزيين : ما قاله بعض المفكرين المعاصرين : ليس بلازمٍ الالتزامُ بما كان عليه أبو بكر وعمر ، وإنما اللازم مسايرة العصر ، والواقع !!

ثم قدّم مقدّمة تزيينيّة فقال : إنَّ الإسلام قوي ، لا يُخشى عليه ، وإذن لا تؤثر به التيارات الأخرى ... وبالتالي ؛ فلا مانع من أن يُنشأ في الإسلام « تعدد الأحزاب » فيكون للشيوعيين حزب ، وللعلمانيين حزب ، وللممثلين حزب ، وللَّه حزب ، وأصوات هذا الحزب كأصوات تلك الأحزاب !!؟؟

فانظر كيف ردَّ الدليل - وهو ما كان عليه أبو بكر وعمر - وداهن العصر ، وخدع الناس بمقدمات تزيينية ، وتخيُّلات فكرية ، خالفوا بها ما كان عليه السلف في العقيدة والمنهاج ... والاجتماع على كلمة سواء .

ومن لم يعصمه اللَّه بهذا العاصم : - وهو التفريق بين البيّنة والتزيين - ، احتج بإباحة السلطان لأمر ، أو سكوته عنه ، على جوازه ،وجَعَلَ سجنَ الداعية أو عدد مؤلفاته ، أو كثرة أتباعه ، دليلاً على صحة أقواله ،وحسب جهاد المجاهد أو استشهاده ، برهاناً على إخلاصه وصواب منهجه ! واعْتَقَدَ أنَّ مجرد مقارعة الحكام ، حجة على استقامة طريقه !

وهكذا استبدل كثير من أهل زماننا أدلة فكرية تزيينية معاصرة ، مقبولة لدى البسطاء والأحداث ، ومن لا علم عنده ، بما كان من الأدلة من كتاب وسنة وإجماع .

خلاصة هذه العواصم :

الأول : أن يفكر المسلم بنجاة نفسه قبل نجاة غيره ، وأن يتبيّن الطريق قبل سلوكه

الثاني : أن حسن النية ليس دليلاً على صواب الطريق ، ولا يعفي من دخول النار

الثالث : أن يُفرّق بين البينة والتزيين ، وبين الدليل والتضليل

والله الهادي إلى سواء السبيل

من ثمار التأصيل والعمل بهذه العواصم :

لما أدرك الصحابة هذه العواصم وعملوا بها .. عصمهم اللَّه عزّ وجلّ من فتنة الفكر ، وإحداث الطرق باسم الوسائل ، وإحداث البدع في الدين ... وصمدوا في وجهها صمود الراسيات في وجه الأعاصير .. كل ذلك بسبب التأصيل العلمي ، والنهج التربوي ، بعد فضل الله عز وجل وتربية رسوله ﷺ

وهاك حديث عائشة رضي اللَّه عنها لما سألتها امرأة : ما بال الحائض تقضي الصوم ، ولا تقضي الصَّلاة ؟ فقالت : أحروريّة[1] أنت ؟ قد كانت إحدانا تحيض على عهد رسول الله ﷺ ثم لا تؤمر بقضاء »[2]

فتدبَّر هذا فإنَّه نافع جدّاً لتأصيل هذه الصحوة ، حيث احتجت عائشة

(١) حروري وحرورية : نسبة إلى حروراء ، وهي أول بلد اجتمع فيها الخوارج لقتال أمير المؤمنين علي رضي الله عنه ، ولذلك نسبوا اليها

(٢) البخاري (١/٣٥٦) ، ومسلم (١/٢٦٥)

عليها بأمر النبي ﷺ فحسب ، دون تعليل ولا تفكّر ، ولا تحليل أو تردّد .[1]

وقالت لها : « أحرورية أنت .. » أي : هل أنت خارجيّة في منهجك ؟ تردّين النصوص بالرأي والهوى ، ولا تسلّمين لها ... ؟

وإذا تدبر العاقل حالنا ، عرف ماعليه أهل زماننا من سلوكهم مسلك الخوارج وهم لايشعرون .

ولذلك كان حرياً بالعاقل الذي يريد نجاة نفسه أن يتبع ولا يبتدع ، فالاتباع هو الضامن للصواب والنجاة ، والإبتداع هو : طريق الانحراف والهلاك

قبل الوداع :

نذكرك – أخي العاقل المنصف – أنَّه ليس المقصود من هذا الكتاب ، رجلاً معيناً ، ولا جماعة مخصوصة ، بقدر ما هو تشخيص حقيقي لواقع مؤلم ، ومعالجة صحيحة لهذا الواقع ، فضلاً عن أنه سعي صادق ، وخطوة جادة ، لتوجيه هذه الصحوة وتأصيلها ، وتوعية أفرادها وتثبيتهم على الحق والمنهج المثمر .. لا تربيتهم على العاطفة الجياشة ، والحماسة المؤقتة ، اللتين تزولان بصيحة ، وتنطفئان بنفخة ! وهذا الذي يُفرح أعداءهم ، إذ إليه يصبون ، ومنه يخترقون ، وبه لأمانيهم يحققون وبتأصيلهم وحسن تربيتهم ، يبقون ما بقي الحق ، ويصمدون كما صمد الأنبياء ، فينالون ما نالوا من خزي أعدائهم ، والتمكين في الدنيا ، والفوز في الآخرة

---

(١) وتفصيلُ القول في « التزيين » ودلائله وأمثلته في كتابي « قواعد معرفة الحق » يسّر الله تمامَه .

﴿ فأمَّا الزَّبدُ فَيَذهبُ جفاء وأمَّا ما يَنفعُ النَّاس فيمكُث في الأرض ...﴾

[الرعد:١٧]

وأَخيراً ..

إذا أَردت أَنْ تعرف نفسك أأنت من الطائفة المنصورة أَم من غيرها ، فانظر في صفات الطائفة المنصورة وقواعدها ، وأُصولها ومفاهيمها ، بالأَدلَّة الواضحة من الكتاب والسنَّة .. وهذا هو الذي يجب أَنْ يعرفه كل نبيه ، قبل أَنْ يسير على الطريق .. أَو يخطو في الاتجاه ... مُعْرِضاً عن كل موروث ورثه ، وعن كل عادة ألفها ، وعن كل شيخ لم يأت بالأدلة ، وحاك القصص والأمثلة ، وعن كل قول لم يقم عليه دليل ، من كتاب أو سنة أو فعل سلف ، فان هذه كلها لن تُغني عنك من اللَّه يوم القيامة شيئا ، الا من أتى اللَّه بقلب سليم ، ومنهج مستقيم « فاستقم كما أُمرت » ولم يقل - سبحانه - كما رغبت وفهمت وهويت واللَّه أسأل أن يلهمنا رشدنا .. ويوفقنا لاتباع نبينا .. وتبيان هديه .. ومنهج أصحابه والسير عليه إنه ولي ذلك والقادر عليه

وهذا ما سيكون بحثنا - إِنْ شاء اللَّه - في الأَقسام التالية من السَّبيل .. وأَوَّله (**سبيل النَّجاة وأصول الطائفة المنصورة**) وعلى اللَّه قصد السَّبيل ، والحمد للَّه رب العالمين

---

(١) يُنظر بيانُ ذلك في كتاب « قواعد معرفة الحق » يسر اللَّه إتمامه

الفهرس

مقدمة..... ٥

مقدمة الطبعة الأولى..... ١٣

فصول الكتاب ومباحثه ١٦

من أين ... إلى أين .. ؟..... ١٨

التشخيص الخاطئ والمعالجة المرتجلة ٢٥

أينَ المسلمونَ .. ؟..... ٢٧

صور أخرى من واقعنا المؤلم ٣٠

حقيقة المشكلة ٣٣

أينَ نبدأ .. ؟..... ٣٤

لوازم التشخيص ٣٧

اللازم الاول : الطبيب هو الله ٣٧

اللازم الثاني : وجوب الالتزام بتشخيص الطبيب ٣٨

اللازم الثالث : وجوب الالتزام بعلاج الطبيب ٣٩

اللازم الرابع : لا مرض جديد في الأمة ليس له علاج في الكتاب والسنة ٤١

اللازم الخامس : صفات المتصدر للمعالجة ٤٤

خلاصة هذه اللوازم ٤٥.....
العقبات ٤٦
الداء الأول : داء الجهل ٤٨
أصناف المسلمين مع العلم والمنهاج ٤٩
أين تكمن خطورة هذا المرض ٥١
عوارض مرض الجهل وصوره ٥٣
من مضاعفات هذا المرض ٥٣
علاجه ٥٥
الداء الثاني : الاختلاف والتفرق ٥٦
مضاعفاته ٥٧
أعجب العجب ٥٩
تسويفات باردة ٦٠
مناقشتهم..... ٦١
هل الاعتصام محال ٦٣
الداء الثالث : سوء الأخلاق ٦٥
أزمة أخلاقية ٦٧
سياحة بصرية ٦٨
لا.. شعار عصري للمسلمين ٦٩
تصورات وتأملات ٦٩
دواؤه ٧٣
ماذا نفقد ٧٤
من صور هذا المرض .. فقدان الرفق والكلمة الطيبة..... ٧٥
باقة عطرة مهجورة ٧٧

الداء الرابع : مرض القول بلا عمل والعمل بغير علم ٧٩
داء القول بلا عمل ٧٩
من مظاهر هذا الداء - لوم الآخرين ٨٠
ازدواج الشخصية ٨١
الداء الثاني : العمل بلا علم ٨٢
أسس مناقشات المسملين ٨٤
أسس لقاءات المسلمين ٨٥
أسس تعاهد المسلمين ٨٥
الداء الخامس : فقدان الإخلاص أو ضعفه ٨٦
ما وراء فقدان الإخلاص ٨٧
ثمرات الإخلاص ٨٩
الإخلاص والتمكين ٩٠
تعريف الإخلاص ٩٠
من علامات الإخلاص ٩١
من المعينات على الإخلاص ٩١
الداء السادس : فقدان المناعة ضد الأهواء ٩٣
مثل العاطفيين ٩٤
عدوى العاطفة ٩٥
سر الثبات وسبب الهلع ٩٧
مؤشر خطير ٩٩
لمن الحكم ٩٩
الأمر الثاني : قلوبنا وقلوبهم ١٠٠

الداء السابع : سوء في التربية ١٠٢
الخطأ الأول : حصر الاسلام في جزء منه ١٠٢
منها : السياسة والحكم ١٠٢
ومنها حصر الاسلام في العقيدة فحسب ١٠٤
ومنها : حصر الاسلام في الجهاد ١٠٤
الخطأ الثاني : استمرار التربية على التعلق بالرجال والولاء والبراء
فيهم ١٠٥
صور مؤسفة ١٠٥
دليل أهل زماننا ١٠٦
دليل السلف ١٠٨
الخطأ التربوي الثالث : التربية على الحزبية ، والولاء والبراء عليها ... ١٠٩
الخطأ الرابع : فقدان التأصيل ١١٣
والمقصود بالتأصيل أيضا ١١٧
خطورة فقدان التأصيل ١١٩
الفرق بين العاطفة والحماس وبين العلم والتأصيل ١٢١
هل من أمل في الشفاء ١٢٤
سر الانحراف ، وسبب الاضطراب ١٣٤
الأول : الجهل بحقيقة هذا الدين ١٣٤
السر الثاني : فقدان التأصيل ١٣٥
السر الثالث : تزيين الشيطان ١٣٥
من خداع الشيطان وأساليبه ١٣٦
كيف حدث الخروج عن منهج السلف ١٣٧

الطريق ... وحال المعرضين ١٤٣
ما هو مصير المتفرقين ١٤٧
هل أنت من الطائفة الناجية ١٤٩
عواصم بين يدي العلاج ١٥٢
العاصم الأول : التفكير في النجاة قبل كل شيء ١٥٢
من علامات العاقل ١٥٥
العاصم الثاني : حسن النية لا يغني عن الاستقامة والاتباع ولا
يكفي للتوفيق والفلاح ١٥٦
النية الصالحة لا تعفي من دخول النار ١٥٨
العاصم الثالث : التفريق بين البينة والتزيين ١٦١
دليل هذا العاصم ١٦٢
لفتة دقيقة ١٦٤
أمثلة من التزيين ١٦٤
خلاصة هذه العواصم ١٦٦
من ثمار التأصيل والعمل بهذه العواصم ١٦٦
قبل الوداع ١٦٧